الفصل الثامن

الخرج

عبور وادي حنيفة

كان اعتلال الصِّحَّة الذي نتج عن مواجهة الأخطار والإنهاك اللذيْن غالبهما في ثبات وجلد لفترة طويلة، هو الذي فرض على داوتي[1] مقاومة الإغراء للاستجابة، عندما اقترح عليه حسين باشا- شريف وأمير مكة في تلك الأيام بكل جديّة- أن يواصل ـ إن كانت له الرغبة- تجواله في الجزيرة العربية، مع وعد بتزويده بخطاب توصية وشهادة بحُسْن السيرة. كان هذا لأربعين عاماً خلت؛ ومنذ ذلك الزمان ظلّ فضول الجغرافيين مستعراً وحماستهم متقدة، واستدام تفكّرهم وتأملهم في ماهية طبيعة الإقليم الجنوبي.

ولكن رغم هذا لم تجرَ محاولة جادّة، أو - على أقلٍّ تقدير- محاولة ناجحة لاستكشاف مجاهله وأسراره حتى نهاية ١٩١٧م، عندما قمت أثناء رحلتي من الرياض للطائف بوصفٍ من على البُعد من سهل سبيع- لصقعٍ جبلي كانوا قد أخبروني أنّ اسمه هضب الدواسر. وكان -فيما أفادوا- يُطلّ على وادي الدواسر من الناحية الشمالية. لقد كان يدور في خلدي تفكير بأن تكون عودتي من الطائف للرياض عن طريقٍ ينحو ناحية الجنوب بدلاً عن المسار الذي سلكه داوتي وهوبير، اللذان قاما بوصفه، وهو الطريق الرئيس بين القصيم والحجاز. كان مرأى تلك الجبال الغامضة قد شدّ مني العزمِ لتحقيق تلك الفكرة. وعندما بلغنا الطائف اتفقت مع رفاقي أن تكون عودتنا عن طريق تربة ووادي رنية نحو

---

(١) راجع كتاب داوتي: C.M.D ، الجزء الثاني ، ص ٥٢١-٥٢٢. (المؤلف).

وادي الدواسر، ثمّ عن طريق أقاليم السُّلَيِّل والأفلاج نحو الرياض. بيد أنّ تخطيطي كان قد أغفل ما قد نتعرض له من مصاعب في التنفيذ، خاصة وأننا لم نستشر من بيده الحل والعقد. ولم أجد في الحسين بن علي، شريف مكة وأول ملوك الحجاز، والحليف الوفيّ لبريطانيا العظمى إلاّ القليل من لين الجانب الذي أُعجب به داوتي في سميِّه الذي عاش حينها. تعرّضت لتقريع صريح لمروري عبر الأراضي المقدسة، وحاولت بعناد، ولكن دون جدوى، أن أُثني الملك عن عزمه -الذي كانت تعوزه الكياسة والاحترام- في منعي من عبورها ثانيةً في الطريق المعاكس. وإزاء إصراره، اضطررت لمغادرة جدة عن طريق البحر، آسفاً على ضياع الفرصة السانحة في تلك الظروف، مِمَّا أورثني الحنق والغضب. بيد أنني غيّرت خُطَّتي، دون أن يكون لدي أمل كبير في تحقيق الحلم، لأقوم بزيارة خاصة للجنوب مستقبلاً، إن قُدِّر وتيسّر لي هذا الأمر.

وهكذا أتيت لابن سعود في معسكره في الشوكى، وأنا أتوقّع - وقد أحبطته نتائج مباحثاتي - أن يطلب مني العودة الفورية للبصرة. وكانت أقصى آمالي إن وافق على إعلان الحرب ضد ابن رشيد أن تسنح لي الفرصة لتنفيذ فكرة زيارة وادي الدواسر بعد الفراغ من العمليات العسكرية في الشمال. وللمرة الثانية كان تخطيطي دون التحقّق من رأي من بيده الأمر. ورغم أن ابن سعود لم يكن راضياً تماماً عمّا اقترحت الحكومة البريطانية أن تساعده به، لكنه وافق على الاضطلاع بدوره.

بعد وصوله لهذا القرار، لم يكن ليصعب عليه إضرام نار الحماسة الكامنة في كل العرب للقيام بالعمليات الحربية. إنّ العربي مُتمهِّل بطبعه - وابن سعود ليس استثناءً للقاعدة- لذا احتاج لبعض الوقت حتى تنضج الخطط في ذهنه، لذلك

عرضَ عليّ أن أعود للبصرة أو الكويت لأتركه يخطط لعملياته على انفراد. وكان قد وعد بأن يقوم بعملياته الحربية في رمضان، وكنّا في بداية رجب، وكان عليَّ أن أعود لأرى ثمرة جهده بعد شهرين[1].

لقد شرحت سابقاً[2] كيف أنني قاومت الاقتراح الذي لم يَرُقني بالعودة للساحل، وتمكنت من إقناع ابن سعود بأن أقضي تلك الفترة اللازمة للإعداد لعملياته في زيارة الجنوب. لقد تمكنا من الاتفاق على هذا الحل في معسكره بشعيب الشوكي في ١٢ أبريل(نيسان). كانت آثار الربيع على الجوانب المتدحرجة لهضبة العرمة جميلة بهيجة، ولكن الأيّام التي تبقت على انصرام الربيع كانت محدودة واستحضرت في ذهني صورةً للصيف القائظ في تلك البقاع الجنوبية التي كنت على وشك زيارتها، لذا كنت أتعجّل الرحيل لأستفيد فائدة تامّة من الأسابيع القليلة التي تبقّت من الطقس المعتدل.

في إحدى المناسبات استجمعتُ شجاعتي لأقترح ألاّ جدوى من ذهابي للرياض، وأنّه من الأنسب أن أشرع في رحلتي بأقل قدر ممكن من التأخير، لكن اقتراحي قوبل باعتراض حاسم. كانت هناك أسباب منطقية شرحها ابن سعود ليبرّر بها مصاحبتي له في رحلة العودة للرياض، ومن ثمّ الشروع في الرحلة الخاصة بي، وعلى أي حال لن تتوفر المطايا اللازمة حتى يعود أتباعه، ويُعاد متاعه للعاصمة. تمالكت نفسي في صبر وأنا أرى الطقس اللطيف ينفلت يوماً إثر آخر

---

(١) لم يستجب الملك عبدالعزيز لطلب بريطانيا وإنما واصل حملاته العسكرية لاستكمال توحيد المنطقة بما في ذلك حائل. (المراجعون).

(٢) راجع الجزء الأول، ص٣١١ . (المؤلف).

في عناد، بينما نشأ لديّ إحساس، لا تسانده مؤشّرات أو شواهد، جعلني أظن أنّ ابن سعود قد ندم على الوعد الذي قطعه لي في لحظة كرم.

وصلنا الرياض يوم ١٩ أبـريل (نيسـان)، وتعـاقـبت الأيّام دون أن تلوح أيّ إشارات للإعداد لرحلتي، وبـدأت أجري بعض التحريّات الحذرة حـول القصر من إبراهيم، ومن الجنيفي والقصـيبي، ومن المرافقين المخصصين لخدمتي؛ وفي حـقيقة الأمر من أيِّ مصـدرٍ قد أستقي منه المعلومات المطلوبة دون أن أعطي شـعوراً بنفاد الصبر. وبعد أن عـادت الإبل من المعسكر أرسلت مجدداً لاستعادة حـيويتها برعي النباتات الربيعية في موقع يبعـد مسيرة يومين أو ثلاثة. وحدثت نفسي؛ لا شكّ أنّ اختيار خير ما يوجد من مطايا سيكون لمصلحتي؛ قليلٌ من الصبر وسيؤتى بالإبل؛ ولكن لم يكن هناك ما يؤكـد لي أنّ أمراً قد صدر في هذا الشـأن، ثمّ صار يتضح لي رويداً رويداً أن الأمر بالفعل لم يصدر. وعندما حللت ضيفاً على تركي يوماً، أحتسي في داره القهوة، تَحدَّث عن رحلتي المرتقبة مؤكِّداً -دون مدعاة للشك- أن العدَّة لهـا قد أعِدَّت؛ ولا بدّ أن ابن سعـود كان قد سـمع عن تحرياتي الدّالة على فراغ الصبر من أولئك الذين ائتمنتهم على السر. بيد أنَّ أبريل (نيسان) أخلى موقعه لمايو (أيار) دون أن تلوح في الأفق علامات مبشّرة، وكان لابدّ لي بعدها أن أصعّد المسألة للوصول إلى قرار بشأنها دون تأخير.

كانت الخطوة الأولى هي عـرض الموضوع على ابن سـعود نفسـه، وفي نهاية إحدى لقاءاتنا المـسائية سألته بوضـوح دون مواراة إن كان يذكر العـهد الذي قطعه على نفسه في السماح لي بالقيـام برحلة للجنوب، وذكرته أنّ الصيف سيحلّ بيننا عمّا قـريب ضيفاً ثقيـلاً. فأجابني: «أنا أذكر الأمـر، ولم أنسه، لكنّي كنت أفكر

أنّك ستواجـه عنتاً كبيراً بالسفـر في هذا الوقت. ألن يكون من الأجدى أن تؤجّل المشروع حتى ينقـضي الصيف؟ حينها سأبعث بـك إلى المكان الذي تريد؟ وإضافة لهذا فـإنّ المشاكل المـرتبطة بالحصـار في الكويت تستـوجب أن تكون هنا، ولكن بالطبع إن كنت تريد الـسفـر فليس هناك مـا يمنع على الإطلاق، إذ أن الإبل على استعداد، ويمكن الإتيـان بها دون تأخير». وكان ردّي: «حسناً، لقـد تقرر سفري من قبل، ولم أخضعه لمراجعة أو تعـديل إذ كنتُ أعتقد أنّ ما يؤجّلُه هو انشغالك بأشياء متلاحقة، وكنت أنتظر أن تخبرني عن موعـده بعد اكتمال الترتيبات الخاصة به. وفيما يختص بمسألة الكويت، فـأنت تعلم أنّ الأمر برُمّته قد سُوِّي تماماً، ولن تكون هناك مشاكل في المستقبل. لقـد أعطيتك كلمة شرف في هذا الشأن. ولكن أيّهـا الحكيم يبـدو أنّك لا تودّ حقـيـقةً أن أقـوم بالرحلة، إن كـان الأمر كـذلك أخبرني، وسأتفهّم الدوافع التي أملته عليك، رغم أنني جدّ حريص على تنفيذ ما أبرم من اتّفـاق». صار الآن الأمر مـرتبطاً بالوفاء بالعـهد الذي قُطع، فـتنازل ابن سعود وهو يحاول إقناعي -عبثـاً- أنّ كل الذي منعه من الالتزام به كان مرتبطاً بما يخشـاه عليَّ من التعب والنصب في تلك الرحلة. ثـمَّ أكَّد لي بعدها أنّه سـيؤتى بالإبل على الفور.

في يوم ٤ مايو (أيار) اسـتيـقظت في الصباح لأكـتشف أنّه لم يجـد جديد. وعندما جاء إبراهيم -وهو أوّل من أستقـبل في الصباح- وجدني في أسوأ مزاج. إن العربيّ ينسى بسهولة الماضي الكريه، وهو دائم التفـاؤل بالمستقبل، ولكنّه ينهار بحيث لا يستطيع التصرّف تحت وطأة المشـاكل لحظة وقوعها؛ لذا انسحب إبراهيم سريعاً عندما استـقبلته بخطبةٍ تقريعيّة مطوّلة عن التعويق الذي يتـسبب فيه، وبعد

لحظات قليلة جاء طامي- وقد كنت دائم الترحيب بزياراته- جاء فيما يبدو يلتمس أن أتفاهم بتسامح أكبر مع إبراهيم، ولكنني أفرغتُ كل المتراكمات التي كانت تجثم على صدري عن عيوب صديقه، وكيف أنني منذ أن عدت لأعيش وسطهم كنت أسعى لنسيان الانطباع السيّئ الذي تركه عليّ إبراهيم أثناء الرحلة إلى الساحل الغربي، وكيف أنني كنت في كل مناسبة أواجهُ بأمرين مؤتلفين معاً: تملُّقٌ وخنوع من جانب، ومعارضة مغلَّفة -رغم أنها عنيدة- لرغباتي من جانب آخر. وتوسّلت إلى طامي أن يفعل ما في وسعه للتأكد من أنّ رغباتي يُستجابُ لها سريعاً. وأن يقوم - إن أمكن - بالحلول محل إبراهيم في مسؤولية إعداد الرحلة وفي قيادتها.

وبعد محاولة فاشلة حاول فيها طامي أن يقنعني بأن حكمي لم يكن صائباً على الرجل، انسحب مكتئباً. وبعد قليل عاد إبراهيم مجدّداً، وقابلته بصمت متبلّد مع إحساسي بأنّ اللحظة الحاسمة قد أتت، وأنّ تحقيق مبتغاي يعتمد على رفض كل المحاولات لإعادة العلاقات الوديّة على أيٍّ من الأسس. وقطع فترة الصمت الطويلة وصول عطا الله يسألني إن كنت أودّ تناول الإفطار، وأجبته بالنفي، فجلس مولى القصر مع إبراهيم انتظاراً لأن يصيبني الجوع فأرضخ. وانشغلت تماماً بقراءة كتاب حتى انسحب اختبارالتحمّل لساعتين فقط، نهض إبراهيم وهو يطلق آهةً حرّى، مجرجراً أذياله خارجاً من الغرفة وهو يحاول لمّ شعث كرامةٍ جريحة. وخضعت مقدرتي على التحمّل للاختبار مرّةً ثانية أثناء النهار، عندما ظهر في غرفتي ابن مسلم، وتعابير وجهه الجاد يغلّفها سؤال حائر، متى سأتناول إفطاري؟ وقلت له: «ليس اليوم» فذهب لحال سبيله.

جاء إبراهيم للمرّة الثالثة في الساعة الواحدة بعد الظهر، وكأنَّ شيئاً لم يكن، وقال لي: «إن ابن سعود يبلِّغُك تحياته وطلب مِنّي أن أخبرك أن الإبل على استعداد»، وكانت إجابتي: «حسناً، لنتحرّك خلال عشرة أيّام». قلت هذا دون أن أُظهر أيّاً من علامات الرضا لما تسببت فيه مناوراتي من نجاح. فقال إبراهيم: «أنت تهزأ بي، لكنني أقول لك إنّ الإبل جاهزة» وكانت إجابتي: «حسناً جداً، أنا أيضاً على استعداد، فلنرحل فجر الغد»، «هذا مستحيل، هناك كثيرمن الترتيبات لا بدّ من عملها». وأجبته «حسناً يا إبراهيم، فلنترك الحديث عن هذا الأمر. أنت ترى أنني على استعداد، أخبرني عندما تكون الإبل مُعَدّة إعداداً حقيقيّاً، سأكون حينها جاهزاً للركوب». كانت الترتيبات تجرى للتحرّك صباح ٦ مايو (أيار)، واستُغلت هذه الفترة ببذل جهود نشطة. كانت الإبل التي خصصت لاستخدامها قد أتي بها بجوار القصر، وهي تزمجر تتأوه في احتجاج واضح. وفي أمسية ٥ مايو (أيار) كانت آخر السحب الرعدية للخريف تتراكم وهي تتلوى وتتداخل وتبرق والرياح الجنوبية الغربية تسوقها أمامها فوق ظهر طويق العريض في اتجاهها نحو الشمال.

وفي اليوم المحدد استيقظت عند الفجر، وما لبثت أن نظّمت كل شأني استعداداً للرحلة، ولكن الترتيبات النهائية لشؤون القافلة استوجبت قليلاً من التأخير استغليته لتناول إفطاري ولإجراء لقاءات وداع ثلاثة، كان اثنان منها مع ابن سعود، والثالث مع أحمد بن ثنيان، وكانت جميعاً لذات الغرض. قال لي ابن سعود، «ستشرع في رحلتك للجنوب؛ هي الزيارة الأولى من نوعها لرجل غربي لتلك الأقاليم، ضع ثقتك بالله، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله. ليس هناك ما تخشاه أينما ذهبت في حدود بلادي ونفوذي، وبفضل الله فإن إرادتي الملكية تسري هناك في كلّ مكان دون اعتراض من أحد، وأينما ذهبت ستجد من يرحب بك من

أجلي. انظر، لقد عيّنت إبراهيم الذي تعرفه أنت منذ عهد بعيد مسؤولاً عن قافلتك، اترك كل الأمر بيده واستمع لنصائحه، وهناك ابن جِلْهَم الذي لا يعرف أحد الجنوب وأهله خيراً منه، فليكن اعتمادك على الله أوّلاً، ثمّ على هذين الرجلين لترتيب كل ما يتعلق بمغامرتك. يمكنك السفر إلى حيث تريد، للأفلاج، أو السُلّيل أو للوادي، ولكن لا تتخطىّ حدود الوادي، إذ لا يوجد بعد ذلك الخط سلامٌ ولا أمان».

وهكذا نزلت إلى بوابة القصر، وتطنُّ في أذنيّ الكلمات الأخيرة لمضيفيَّ التي تحذرني والتي تسمح لي بالذهاب لأي مكان آخر أريده. وركبت ورفاقي المطايا في الساحة وسرنا في تتابع بطول الطريق الذي يؤدي إلى بوابة المدينة الشمالية الشرقية. ثم انحنينا ناحية الجنوب الشرقي متتبعين المهد الرملي لمجرى سيول الشمسية، متخطين المقبرة الملكية، ومررنا من وراء حافة حزام النخيل لنجد سفح سلسلة تلال دريبات الخيل التي تقدّمنا بمحاذاتها جنوباً حتى تخطينا منفوحة، وبقايا المدينة القديمة التي دُكّت والتي كانت تحمل ذات الاسم. ثم تخطّينا القرية الصغيرة المصانع التي تتوسط النخيل، لنصلَ إلى مزرعة مزعل المسوَّرة في الطرف الجنوبي للواحة. هنا يقترن مجرى سيول الشمسية بوادي حنيفة العظيم، بينما ينفصل وادٍ آخر عن مجرى وادي حنيفة الذي تحيط به الصخور الشاهقة والذي يخترق هضبة طويق. ينفصل الوادي وعرضه ميل واحد في الباطن، في مكان يقع إلى الشمال الغربي من هذه النقطة جارياً نحو الجنوب الشرقي، وتحدّه صخور طويق المنخفضة على اليمين، ومنحدر دريبات الخيل اللطيف من الشمال؛ وابتداءً من هذه النقطة يعرف الوادي باسم حشات دعكنة.

كنا الآن في وسط الوادي، في متاهة معقّدة من المجاري الصغيرة التي تغطيها الحصباء، والتي اقترنت جميعاً لتكوّن مجرى سيول واحد على بعد نصف ميل من المكان الذي يقع أسفل ما تبقّى من قرية الجزعة، التي تقف أعجاز نخيلها المحطمة شاهداً على الأيام التي ازدهرت فيها النخيل في مملكة اليمامة القديمة. كانت الجزعة في يوم ما قرية مزدهرة في واحةٍ خصيبة، ولكن كلّ هذا سوّي بالأرض بفعل الأتراك -كما يقولون- قبل قرن من الزمان، عندما حاول إبراهيم باشا أن يفرض سطوته على نجد.

وفي وقت قريب شهد المكان صراعاً بين أبناء فيصل، بعد أن قضى عمره وهو يحاول أن يوفق بين أمزجتهم المختلفة المتناقضة، وبعد مساعٍ فاشلة للحدّ من الغيرة التي اتقدت من دواخلهم، والتي سجل بلجريف تفاصيل فورانها مع تنبّؤٍ دقيق بما يمكن أن تجري عليه الأحداث مستقبلاً، وذلك عندما روى تفاصيل تجواله في الجزيرة العربية[1]. وهكذا فإنّ الجزعة لا تتذكّر إلاّ كإحدى ساحات الحروب العديدة التي حارب فيها عبدالله وسعود بعضهما من أجل السيادة على البلاد الوهابية التي فُقدت في النهاية لمغتصبٍ أجنبي من جبل شمر، والذي قدّر لإمبراطورية فيصل أن تتبع له حتى استعادها مع إطلالة القرن العشرين ابن شاب لابنٍ أصغر لم يؤدِ دوراً في النزاع الذي شبّ بين أخويه.

مات عبدالله دون أن يخلّفَ أبناء، ولكنّ سعوداً خلّف أبناء وحفدة. ولا يُعرف على وجه التحديد الكثير من تاريخ الجزعة القديم، ولكن المعلومات المهزوزة المتداولة تبيّن أنّها كانت في العهد القديم خطاً متصلاً من قرى وواحات

(١) W.G.P الجزء الثاني، الفصل السادس، ص٧٤؛ والفصل السابع، ص١٠٩. (المؤلف).

مزدهرة، وكانت تمتـد دون انقطاع هبوطاً إلى مهد وادي حنيفـة من العيينة في قلب العارض إلى اليمـامة في الخرج؛ حتى دُمّر الوادي بالفـعل المزدوج للجراد والوباء، فانعدمت الحياة في قراه.

كانت القرى فيما مضى ملتحمـة مع بعضها البعض، بحيث أنَّ نبأ ميلاد طفلٍ لأحد وجهـاء العيينة كان يصـل إلى مدينة اليمامـة في مساء اليوم نفـسه، بعد أن تتناقله الألسن من بيتٍ لآخر، هابطاً الوادي عبر مسافة لن تتمكن أسرع المطايا في أيامنا هذه أن تقطـعهـا في أقلٍّ من ثلاثة أيَّـام. هكذا تمضي الأسطورة التي تذكِّـرُ بمآذن كوس بمغول الهند والتي بنيت عالية - إن كان لنا أن نصدّق القصة - لتعطي حريم الإمبراطور بلاهور إشارةً حول الموعد الذي يـقدّم فيه الطعام للإمبراطور في دلهي، إذ لا تسمح لهـنّ قواعد التـشريفات تناول الطعـام قبل سيـدهن ومولاهن الإمبراطور. هناك بلا شك أرضـية للاقتناع العام بأنَّ الوادي المهـجور قد تمتّع في ماضٍ -لعله ليس جد بعيد- بقدرٍ كبيرٍ من الازدهار.

ولكن غياب الآثار والحطام إلاّ في مـواقع قليلة متفرقـة، يدحض بقوة الفهم السائد من أنّ العقاب الإلهي لمظاهر الوثنية في اليمامة كانت في شكل وباء وجراد قضى على الحياة فيها. وإن حـاولنا أن نبحث أسباب الخراب الحالي للوادي لا بدّ أن نفاضل بين خيارين بناءً على ما نعتقده من أنّ المستوطنات الحالية، إضافة لمواقع الآثار القـديمة، تسمُ حدود كل المسـتوطنات القـديمة، أو أنّه كانت هنـاك واحات أخرى قد طمـست آثارها تماماً. والخياران المطروحان بناء على الاعتـقادين أعلاه، همـا أنّ الجفاف التـدريجي حل بالمنطقـة لفتـرات طويلة نتيـجة لتـراجع الأمطار الموسمية، أو أنّ طوفاناً عنيفاً اجـتاحها وطمس منها ما طمس. لكلٍّ من النظريتين

الكثير الذي يَدْحَضُهَا. إنَّ بقايا شجرة أبو قباس[1] في وادي العمارية يوضح الهجر والاضمحلال الذي يمكن أن يصيب واحة حُرمت من الماء.

ورغم هذا فإنّ قصّة ازدهار مملكة اليمامة في أزمان قديمة لا يمكن إغفالها بالكلية إذ أن اكتشافات لآبار قديمة تمّت منذ عهد قريب، وحفرت مجدداً بعد أن دفنت ونُسيت منذ زمان بعيد في أجزاء متفرقة من الوادي، مما يعطي دلالة لوجود قرى قامت في الماضي وطمست الآن بحيث لم يبقَ لها أثر. ورغم ما أتوخّى من الحذر اللازم في مثل هذه الأحوال، إلاَّ أنّني أميل لنظرية السيل المدمِّر، وهو أمرٌ جائز الوقوع، وقد سجّل حدوثُه في حالات قليلة بسبب ضيق مجاري أودية الأنهار في الجزيرة العربية، والتي اعتادت على تصريف مياه الأمطار الهزيلة، وعجزها عن التحمّلِ عندما تواجه -مرّةً في الدهر- بأمطار استثنائيةٍ لا تنقطع. تكون مثل هذه السيول نادرة الحدوث في وسط الجزيرة العربية، في منطقة جبل طويق، ولكنّها حين تحدث يمكنها -كما قالت الأسطورة- أن تطمس إمبراطورية.

يميز موقع اقتران المجاري المتفرقة التي تكوّن الوادي المتحد أجمة من أشجار الحوْر، وينحني الوادي انحناءة عريضة نحو اليمين، باتجاه حوض دائري، حيث يقترن به رافدان آخران، هما شعيب دعكنة من ناحية اليسار، وشعيب بقرا الذي ينزل من المنحدر المتموج اللطيف لطويقه من اليمين. توجد هنا مجموعة من البيوت الريفية وسط مزارع الحبوب وهي تابعة لقبائل سبيع والسهول، وتمتدّ نحو

(١) راجع الجزء الأول، ص١٩٣ . (المؤلف).

الشرق من وادي حنيفة إلى مراعي الجبيل والعرمة والدهناء. وهنا أيضاً حاول ابن سعود -كما أخبروني- أن يقيم هجرة للإخوان، لكنه لم يفلح. توقفنا للقيلولة على ضفة بقرا الصخرية بعد أن قطعنا ثمانية أميال من بداية الرحلة.

امتدّ عن اليمين والشمال سهل فسيح من الحجارة الجيرية الرمادية، مرتفعاً على جانبي الوادي، وبرزت الحافة الحادة للجبيل من خلف سلسلة تلال دعكنة الوعرة. هكذا كان المشهد الذي رآه بلجريف قادماً من الاتجاه الشمالي الغربي للرياض، فعظَّمه واصفاً إيّاه «بالجبال الزرقاء ذات القمم المثلَّمة المسننة لليمامة»[1].

بعد أن عبرنا نتوءًا صخريّاً رفيعاً من منحدر طويق، دخلنا ثانية الوادي أسفل دعكنة فور أن غادرنا المسير بعد الظهر، ثم مررنا بأيكة من أشجار الحوْر يسمونها الغاف، وبعدها بلغنا وارتقينا الأرض المرتفعة في الجانب الأيسر، وقد كانت ألواح الحجارة الجيرية البالية قد تحولت إلى سلسلة من درجات سهلة الارتقاء. كان مسارنا لبعض الوقت ينأى بعيداً عن مجرى السيول الذي كنا نلمحه من آنٍ لآخر عن يميننا أثناء المسير، حيث كان يشقّ طريقه عبر مسيل ضيّقٍ عميقٍ شديد التحدّر. ثم التقينا به ثانيةً بعد ميلين من الانحدار عن طريق وهد الحُفْنَة وهو صدع عميق تحيط به منحدرات صخرية شاهقة أبلتها عوامل الطبيعة، وترتفع لأربعين قدماً، وبها فجوات شبيهة بفوهات الكهوف تنتشر في كل الموقع مما جعل المكان يبدو كقرص العسل.

---

(١) W.G.P الجزء الأول، الفصل الرابع، ص ٣٩٠ . (المؤلف).

تتبعنا ابتداءً من هذا الموقع مهد المجرى المتلوّي عبر وهد عميق تنمو فيه بكثافة أشجار الحور والسنط والطرفاء، ويضيق عرضه ويتسع بين ٣٠ إلى ١٠٠ ياردة، وتحدُّه المنحدرات الصخرية الشاهقة من الجانبين، كان ارتفاعها في البداية نحواً من خمسين قدماً، ولكنه كان يزداد سريعاً كلما هبطنا نحو الأسفل. ويظهر أعلى ارتفاع بلغه سيل العام المنصرم خطّ مزدوج من أعشاب تافهة لا أهمية لها. لقد سال مجرى وادي حنيفة سبع مرات خلال الشتاء والربيع هذا العام، وفي إحدى المرات كان السيل أكثر مما تحتمله مجموعة من سبعة آبار، هي مجموعة «قلبان الحفنة» التي تحطمت مبانيها رغماً عن أنْ من بناها كان يظنّ أنها من القوة بحيث تقاوم السيول؛ وتناثرت حجارة البناء في المجرى الرملي لمسافة ميل أو يزيد. ولاحظت هنا وهناك خلجاناً ضحلة، كان ما حَسَبْته منها بين مدخل وهد الحُفْنَة والحائر أحد عشر[1]، وكانت تكسر استمرارية الجروف الصخرية على الجانبين حيث تصرّف المنحدرات مياهها نحو الوادي. كانت تتوج قمم الجروف العالية بعض المباني الحجرية المهدَّمة، وتبدو وكأنّها كانت أبراج حراسة في زمان مضى. رأينا في نهاية الوادي قبل الوصول إلى الحائر ركام تسعة آبار تسمى عرير (Arair)، شاركت الآبار التي كانت تعلوها نفس المصير.

بلغنا الحائر قبل الساعة السادسة مساءً بقليل، مصاحبين لرشّة يسيرة من رذاذ، وصلناها بعد مسيرة ستة عشر ميلاً من الرياض. تقع الواحة في حوض قطره ٢٠٠ ياردة، عند التقاء مجريين هامين مع الوادي الذي يغيّر الآن اتجاهه الجنوبي

(١) شعيب مريسلة وخصيفان وأم طليح وثلاثة أخرى بلا أسماء، على الجانب الأيسر، وخمسة منها على اليمين بلا أسماء أيضاً. (المؤلف).

فجأة ليتّجه شرقاً. المجريان المعنيان هما شعيب لحا وشعيب بعيجاء اللذيْن يجريان منحدريْن نحو الحوض الأوسط، من اتّجاه الغرب واتجاه الجنوب الجنوب الشرقي، على التوالي، بين صخور ترسبيّة شاهقة. هذان الرافدان إن صحّت الإفادة المحلية - هما وهدان عميقان يشقان طريقهما عبر حاجز طويق العظيم من الغرب للشرق، ويصبّان في الخليج الصخري العريض في الجرف الغربي للحاجز حيث تقع هجر الغطغط والمزاحمية والبقية التي تتصرف فيه مياه المحمل والعارض عن طريق وادي الباطن أو ضرما. وترتفع الصخور المحيطة ١٥٠ إلى ٢٠٠ قدم، وأعلى الأقسام هو ذلك الذي يعلو فوهتي الرافدين. وفي أسفله كانت تستكنّ قرية الحائر الصغيرة، وهي مكوّنةٌ من جزأين غير متساويين يفصل بينهما شريط أرضٍ عارية. وتتوج القمّة أربعة أبراج حراسة، ثلاثة منها تعلو القرية مباشرةً والأخير فوق الزاوية التي تتكوّن بالتقاء الجانب الأيسر للحا والجانب الأيمن للوادي عند اقترانهما، ويبدو أنّ هذه الأبراج قد أُوقف - منذ زمن- استخدامها للغرض الذي أُنشئت من أجله، وأصبح سلام ابن سعود هو الحرز المانع الذي ينتظم البلاد، ولم يعد ظهورُ غَريبٍ في الأنحاء دلالةً على وجود حشد مسلّح مغير.

كان الجزء الرئيس للقرية هو ذلك الذي يقع بالقرب من مدخل لحا، وهو مربع يبلغ ضلعه بضع مئات من الياردات، ويحيط به سور خفيض مهدّم، وتوجد بداخله سبعون أو ثمانون بيتاً طينيّاً. ولم يكن من ضمنها مبنى فاخر سوى مسكن الأمير المحلي، وهو مبنى طويل مستطيل، ومسجد صغير به رواق مُعمَّد وأقواس مسننة تمثّل تماماً نمط العمارة الدينية في البلاد الوهابية. كان الحائط بلا بوابة عامة

تزينه، بل كانت به فتحات غير منتظمة على بعد مسافات متقاربة، يدخل ويخرج القرويون من منازلهم الخاصة عبرها. وكان القسم الآخر من القرية يضمّ مجموعة تتكون من خمسة وعشرين كوخاً، أشكالها غير منتظمة، ولا أسوار لها، وهي تبدو وكأنها ملحقة بالقرية، وكانت تظلّ المجموعتين صخرة شاهقة، تحميهما من شمس الظهيرة وما بعد الظهيرة.

امتدّ في واجهة القرية شريط ضيّقٌ من أرض مخصصة لزراعة الحبوب، وتواصل الشريط لمسافة طويلة مرتقياً «لحا». وكانت نساء القرية عند مرورنا بها في الصباح يعملن في همّة ونشاط يذرّين أكواماً عالية من الشعير الذي تم درسه سابقاً. ولم يكن الحصاد في الرياض قد بلغ هذه المرحلة، وحتى موعد مفارقتنا للعاصمة لم تكن عمليات الحصاد قد تقدّمت إلا قليلاً. طُمِرَ مجرى سيول الوادي الرملي على بعد مسافة قصيرة أسفل الموقع الذي نصبنا فيه خيامنا، لتظهر غابة كثيفة من أشجار النخيل والحور والطرفاء والسنط، وقد غطّت كل مساحة الحوض تقريباً، وتسلقت بوهن ومن غير انتظام لمسافة قصيرة، مُحاولة ارتقاء مجاري لحا وبعيجاء، ولمسافة أطول، وبكثافة أكبر من الامتداد الشرقي لوادي حنيفة وبتمعن المكان حولنا، وضح لنا أنّه في وسط هذه الخضرة المدارية الوافرة توجد بركة كبيرة، عرضها ثلاثون إلى أربعين ياردة، وطولها نحو مئة ياردة، وعمق الماء بها حوالي قدم واحد، ومياهها الجارية في صفاء البلور، إذ لاحظت أنّ جدولاً صغيراً يفترق عن النهر في طرفه الأسفل وينبسط بعد كل مسافة مكوّناً مستنقعاً ضحلاً بعمق بوصات قليلة، ويستمر هكذا دون انقطاع مسافة ميل واحد في اتجاه مجرى النهر لينتهي في «غدير» في بداية الصقع الذي يسمّى العفجة. هذا الغدير هو الذي يستخدمه أهل الحائر كمستودع للماء خلال الجزء الأعظم من فصل الصيف،

ويقولون إنه يحتفظ بمائه في كثير من الأحيان حتى موسم الأمطار التالي. ويغسله ثم يملؤه كلّ عام سيل وادي حنيفة. شممنا على ضفته عبق بدايات الصيف بسبب لوجود وفرة من الأعشاب في الأسفل، ورقاع الحور الكثيفة في الأعلى. وكنا نسمع طنين حشرات لا تخطئه أذن عند اختراق الأجمات المكتظة بالأشجار؛ وسمعت أكثر من مرّة أثناء الليل غناء البعوض المشؤوم.

الحائر مستوطنة بدوية حقيقية، من النمط الذي يوجد في الخرمة، وهو نوع نادر الوجود في وسط نجد، رغم أنّه ينتشر، بل يسود في الأقاليم الجنوبية كما سيتضح من خلال هذا السرد، كما يوجد شبيه لها في الشمال بخيبر وتيماء[1]. وفي معظم هذه المناطق يتكون أغلب السكان المقيمين من الزنوج، وهم في الغالب رجال أحرار، أصولهم إفريقية خالصة رغم أنّ وجودهم استدام لأجيال متعددة دون انقطاع في الجزيرة العربية، كما تسكن المنطقة أقلية صغيرة من رجال العشائر الذين يؤثرن البقاء مستقرّين في موقع واحد، متخذين الزراعة وسيلة للعيش بدلاً عن الحياة البدويّة بكلّ همومها الرعوية ومخاطرها الخفيّة. حقّ امتلاك الأرض هو حكر على رجال العشائر، سواء أكانوا مقيمين أم متجوّلين، يؤول إلى كلّ منهم نصيبه منها وفقاً لقانون الوراثة، بينما «العبيد» - ولا زالت تطلق عليهم هذه التسمية رغم أنها فقدت معناها الأصلي - يفلحون الأرض ويسمُّونهم «الكداديد»[2]، يحفرون ويقلبون الأرض ويبدلون العرف في أرض الغير من أجل ما ينالونه من نصيب من الإنتاج. هذه النسب تنطبق فقط على إنتاج التمر والحبوب، ولكن المنتجات الأخرى مثل الخضراوات والبرسيم والفواكه فهي تترك

(١) وأيضاً لحدٍّ ما في منطقة السر. (المؤلف).

(٢) عمال زراعة. (المؤلف).

بحكم العادة بكاملها للمزارعين كمكافأة وحافز على اهتمامهم بتلك الزراعة الطوعية الإضافية التي تعتمد عليها بساتين الجزيرة العربية الصحراوية اعتماداً كبيراً للحفاظ على خصوبتها وعمارها.

وجدنا في الحائر اختلافاً يسيراً في نمط السكان بالقرية، إذ كانوا بكاملهم من الزنوج بما في ذلك الأمير نفسه، وقد يبلغ عددهم ٤٠٠ نسمة، بينما أصحاب الأرض من البدو يتجولون بكاملهم مع قطعانهم في الصحراء سعياً وراء الكلأ، ولا يزورون عاصمتهم القبلية إلاّ في موسم جذاذ التمر، حيث يستلمون مستحقاتهم، وفي شهر الصيام إنْ أتى رمضان في الشهور الجافة من العام -كما يفعل الآن- ولعدد من السنوات الماضية.

عندما رجعنا مرةً ثانية للحائر في رحلة العودة في منتصف شهر رمضان[1]، كان البدو قد بدؤوا يتوافدون للتصييف بها. لعلّ السبب الذي يمنعهم من الإقامة المستديمة في هذه البقعة هو المناخ، إذ أن الوادي الضيّق الذي لا تتعدى مساحته الأرض المرويّة، والذي تحفّ به المنحدرات الصخرية الشاهقة، ويقع تحت رحمة أشعة الشمس الحارقة، ليس صحيّاً ولا يُغري بالاستيطان الدائم.

هؤلاء البدو من عشائر قبائل سبيع والسهول، كانوا في زمنٍ مضى ذوي انتشار في الصحراء الممتدة بوسط الجزيرة العربية، ولكن منذ عهد بعيد اتجهوا شرقاً أمام الزحف القادم من الغرب لقبائل قحطان وعتيبة. وفقد السهول قبضتهم على مساراتهم الرعوية القديمة حول منطقة الحمرا الجبلية، حيث تمثلهم الآن -كما أخبرتُ من قبل - بقايا من القبيلة، يقيمون في الرويضة وفي عدد من القرى

(١) ١٣ رمضان الموافق، ٢٣ يونية. (المؤلف).

الصغيرة التي تعتمد عليها. أمّا بقيّة القبيلة فهم يقيمون الآن بالكامل شرق خط وادي حنيفة في تقارب كبيرٍ مع مواقع سبيع. قاومت القبيلة الأخيرة الغزو القحطاني للحدّ الذي احتفظوا فيه بجزء كبير من الأصقاع التي كانت لهم في الغرب، بما في ذلك وادي سبيع ووادي رنية حيث ما زالوا يقيمون. ولكنّ الجزء الذي لم يتمكّن من المقاومة الكافية في الوسط، تَمَّ دفعهم نحو الشرق مع السهول. وهكذا فإن سبيع مقسومون إلى جزأين: شرقي وغربي، وتفصل بينهما امتدادات صحراوية شاسعة. لقد سبق أن تحدثت عن الجزء الغربي[1] في حديثي عن الخرمة والمراعي من حولها. أمّا الحدود الغربية للجزء الشرقي من سبيع فهو وادي حنيفة، على الامتداد من الرياض إلى الحائر، أو إلى حدٍّ ما للجزء الأسفل من الوادي في الحائر، حيث يرعون في اتجاه الشرق على مرتفعات الجبيل والعرمة وحتى رمال الدهناء، وفي سهل الصمان الذي يقع في الخلف. ويبلغ التقدير المحلّي للجزء الشرقي من قبيلة سبيع حوالي ٣٠٠ خيمة، والسهول حوالي ٢٥٠ خيمة، وبناءً على هذا، يمكن أن نقدر مبدئياً تعداداً كليّاً يبلغ ١٥٠٠ نسمة، و١٢٥٠ نسمة، على التوالي للقبيلتين. ولهم حقوق مكتسبة بحق التقادم لآبار المياه في العرمة.

يعد سكان الحائر الأحرار صعاب المراس فيما يختص بكرم الاستضافة، واستحقّوا هذه الصفة بإهمالهم لإقامتنا القصيرة في بلدهم. لكنّي لم آسف لهذا، إذ في اليوم الأول للركوب، تؤلم الأجزاء الصلبة من حافة السرج وكذلك الحركة المتمايلة للإبل العضلات التي أراحتها الدعة وحياة المدينة، معرّضة الإنسان

(١) انظر الجزء الأول، ص٢٦٨ وما بعدها. (المؤلف).

للإجهاد، ويزداد النصب كلّما كان السير في الساعات القائظة من النهار. وكنت قد شعرت بصداع يسير وبمبادئ للحمى، فخلدتُ للراحة، ولكنّهم أغروني بالخروج عن خيمتي لتناول العشاء؛ وقام الأرز الذي يتصاعد بخاره ولحم الضأن بجلب الحمى من داخلي إلى السطح، وعادت بي إلى مرقدي وأنا غارق في العرق.

كانت الرياح شمالية قويّة تنفث حفنات من رمال في الوادي تحت سماء مكفهرَّة وذلك عند الفجر في اليوم التالي. حينها عاودنا المسير عبر الواحة وبطول الجدول الصغير حتى بلغنا آخر البرك، وهناك ملأنا قرب الماء وتقدّمنا في اتجاه الشرق أسفل الوادي الذي صار عرضه هنا حوالي ٢٠٠ ياردة، تحفُّ به من الجانبين منحدرات صخرية ترتفع أربعين قدماً. تبعثرت هنا على امتداد ميل حوالي خمس عشرة بئراً يسمونها جماعياً العفجة ويجري ليصبّ فيها شعب سليم من جهة اليسار.

وعلى بعد ميل من هذا الموقع- وهو ما يبعد ثلاثة أميال أسفل المنحدر - من الحائر يتغير المشهد بعض الشيء، إذ أن الوادي ينحني نحو الجنوب الشرقي في مهد عرضه ميل واحد وتنقّطه كثبان رملية خفيفة وأشجار الطرفاء. وفي وسط هذه الأشجار وجدنا حطّابين تابعين لابن سعود يعملون في همة ونشاط، يقطعون ويحمّلون الأخشاب على البعير لأخذها للقصر الملكي لاستعمال المطبخ. وينحدر الجانب الأيمن - ولم يعد الآن صخرياً- بلطف، بعيداً عن الوادي نحو سلسلة تلال خفيفة، من تلال طويق تُسمّى العرمة. أمّا عن يسارنا فلقد كان جانب الوادي محدّد المعالم، ومكوناً من سلسلة تلال خفيفة، ومن خلفها سلسلة تعلوها

قليلاً. كانت هذه بداية سلسلة تلال الزويليات التي تجري الآن موازية للوادي لعدّة أميال. وكان شعيب رُمّانتين، الذي سُمّي هكذا لأنّه يهبط من هضبة صغيرة مدوّرة، يعلوها ما يشبه حلمتي الثدي، في سلسلة الزويليات، حيث يدخل هذا الشعب إلى الوادي في المنحنى، وهو الطريق الذي يسلكه المسافرون من الحائر إلى الأحساء والساحل.

هكذا تقدّمنا لثلاثة أميال، والوادي يتحول رملياً بدرجة أكبر كلّما تقدّمنا، وأشجار الطلح -وهي العينة التي تحمل الصمغ- تحلُّ محلَّ الطرفاء تدريجياً. عند بلوغنا هذه النقطة تحاشينا أن نتتبّع الوادي وقد انحنى، فارتقينا الجانب الأيسر ذي الانحدار اللطيف، وتتبّعنا الحافة الخارجية لسلسلة الزويليات حتّى بلغنا الربوة المخروطية الناتئة التي تسمّى السوق، بعدها استمرت السلسلة تحت اسم طوال السوق.

وسرنا هكذا لمسافة تربو على أربعة أميال بمحاذاة الوتر الذي تكوّن بانحناءة الوادي اليسيرة، والذي تقع خلف ضفتيه الأبعد سلسلتا سدير والدواسر. وتبدو في الأولى بوضوح رابيتان تسميان أم عنيق وأم رقيبة، بينما ارتفعت قريباً من الجانب الأيمن، وعلى سفح سلسلة الدويرة الكومة الرملية المخروطية المسمَّاة نقى المطوّع. ودلفنا إلى الوادي ثانية، وتتبعناه لثلاثة أميال، ثمّ تركناه لنتخذ طريقاً يتجه نحو الشرق، فارتقينا جانبه الرملي الأيمن، ونصبنا خيامنا للقيلولة في وسط موجة رملية تتكئ جزئياً على سلسلة الدويرة وتطمسها في بعض المواقع. ومن قمّة السلسلة وجدت فرصة عظيمة لأقوم بمسح المشهد من حولنا؛ تتابعٌ موحش من سلاسل تلال خفيفة مصفوفة، تقترن واحدةً إثر أخرى من كلا الجانبين بمجرى

وادي حنيفة العريض الذي لا تحدّه هنا حدود واضحة، ويستمر هذا النمط على مدّ البصر إلى الجنوب قليلاً من اتجاه الشرق.

إلى اليسار ترقد سلسلة الزويليات وتعقبها كامتداد لها طوال السوق، وكانت تسمو من خلفها سلسلة أشقر المراغة مع شعب يُسمّى المراغة، ينحدر نحو وادي حنيفة بين السلسلتين. ومن الخلف أيضاً كانت تلوح الحافة القاطعة للجبيل، تحرس الجانب الشرقي لوادي السلي الذي تقع نقطة اقترانه مع وادي حنيفة على بعد أميال.

وعلى اليمين توجد الأودية العريضة الضحلة، وتقع بينها متتابعة من الشمال للجنوب: سلاسل تلال حفيرة وسويدة وفِرزان. والسلسلة الأخيرة تنتهي في نتوأين مخروطين خفيفين يكوّنان مداخل الخرج.

كانت موجات الرمال التي خيّمنا في وسطها قد بدأت على مسافة ميل أو اثنين في أعلى الوادي، في جوار نقى المطوّع، واستمرّت بطول مجرى الوادي في شكل كثبان رملية متصلة تعلو أحياناً وتهبط أحياناً أخرى حتى تقترب من سطح الأرض، وتارةً تكون في المجرى نفسه ومرّة أخرى تتكوّم فوق الجانب الأيمن، حتى تخوم الخرج.

أثناء مسيرتنا أحرزت بعض التقدّم في التعرف على رفاقي وفي تكوين صورة ذهنية لصفاتهم ومقدراتهم، حيث بدأت المميّزات الشخصية لأفراد المجموعة التي رافقتني من الرياض تتضح؛ إبراهيم وطامي شخصيتان معروفتان من خلال سردي السابق، ولقد كانا الوحيدين اللذين رافقاني الآن من مجموعة جدة. إذ أن سعيد القحطاني الذي جاء يعدو ليودّعنا بحرارة لم تكن متوقعة، ساعة خروجنا من باب

المدينة الذي يقود لمجرى الشمسية، استجاب لدعوتي إيّاه بمرافقتنا بأن وعد أن يلحق بنا في الحائـر، بعد أن يصل إلى داره في المزاحـمية. ولكنّه - حـيثـما هو الآن - فشل في الوفاء بوعده، ولعلّه لم يكن يود الالتزام بـه ابتداءً. وقد احتل رشيد، أو أخو حسنة كما كـان يلقبه أصدقاؤه كعلامة للإعجاب والتـعلّق بأخته، احتلّ موقع سعد اليمـيني دون أن تكون له مزايا خاصة تؤهله لذلك، وكان مـقدَّرًا له أن يحتلّ موقع إبراهيم أيضاً. لقد أشرت له من قبل[1] في قصّتي، وسيتكرر مني ذلك بعد هذا. أمّا سعد بن جلهم عميد المجموعة، فلقد كان يتأخر خلفنا معظم الوقت أثناء الركوب، وكان أكثـر حضوراً ورفقةً حول نيران المخيّـم منه في المسير وقت النهار. ومحـمد الدوسري كـان شاباً دائم البسـمة، فاتر الهـمّة؛ ويبدو أنّه قـد انتُزع من أحضان عروسه الأولى، ذات الجمال الطاغي، والتي كـان قد تزوجّها منذ عهدٍ جدّ قريب. لقـد كان نتـيجة لذلك سـاهم الفكر، بيد أنه لم يكن قلـقاً على الإطلاق باحتمالات غياب طويل عن بيته الجديد، ولقد قال لي في الأيّام الأولى للرحلة إن عروسه كانت تجول مع أهلها البدو في تخوم الخرج، ليس بعيداً عن موقعنا. هناك أيضاً ناصر، وهو عـتيبي، وعُبيْد، وهو قـحطاني وقد انضمّا إلينا «كرفـاق» تحسباً لالتقائنا بمجموعات من القبيلتين اللتين ينتميان إليهما. كانت للأول صلة بشكسبير، إذ كان ابناً لطَـلَق الذي رافقه -مع طامي- من الرياض لبريْدة عام ١٩١٤م، وتمكّن من إنقاذه عند حدوث مواجهة حادة مع مجموعة مغيرة من عتيبة.

كانت مجموعتنا تتكوَّن في هذا الوقت من اثنين وعـشرين شخصاً، بمن فيهم شخـصي؛ وانقسمـوا لقسمين: للرفـقة والخدمات. ليـس هناك داعٍ للحديث عن

---

(١) راجع الجزء الأول ص٥٠٧ . (المؤلف).

المجموعة الثانية بتفصيلٍ الآن، لأنهم لم يكونوا يركبون معي إلاّ نادراً، إذ كانت خططهم تهدف إلى الوصول للغاية التي نحددها كل يوم كموقع للمبيت، في أسرع وقت ممكن. أمّا عن مجموعة الرفاق، لنكتفِ الآن بما أوردناه عنهم كمقدّمة. بيد أنني تركت ثلاثة من المجموعة لأنَّهم يستحقون أن يُذكروا ببعض الإسهاب. أوّلهم عبدالرزاق؛ من القصر الملكي، كان من خير راكبي الخيول، مثال ممتاز للشخص الذي لم تختلط أرومته بعنصر آخر، ضخم الأطراف وضخم الشفتين، مولع بالقتال لدرجة الخطورة، شجاع بتهوّر وذو ولاء لابن سعود لا تشوبه شائبة، وذو إخلاص لكلِّ عملٍ يكلّفه به ابن سعود. كنت أتمنّى أن يُنتدب لهذه الرحلة منور وعطا الله، ذويْ الطبع الهيّن، والذين خبرت خدماتهما. ولكن عندما خاب رجائي، نظرت لاختيار عبدالرزاق لخدمتي كنوعٍ من التقدير الخاص لي، إذ أنَّ وظيفته في القصر حتى الآن هي الاهتمام بالأمراء الصغار، محمد وخالد عند تجولهما على ظهور الخيل حول الرياض. ولم يترك عبدالرزاق لي مجالاً للشكوى خلال هذه البعثة، إلاّ في بعض الأزمات التي سيأتي ذكرها، حيث كان ولاؤه يجبُّ لديه حسن التقدير. لقد كان يصحبني حيث أذهب في كامل سلاحه ليجلس في صبر بجانبي وأنا أمسح المنطقة من فوق قمة أحد التلال، وإن خرجت خلسة من المخيم لأنفرد بنفسي، لم يكن يمضي وقت طويل قبل أن أجده بإزائي معرباً عن احتجاجه بأن لا ينبغي أن أفعل أشياء كهذه.

وكان الرجل الثاني مرّياً فظّاً سيماه كطلعة شرطي سِرِّي؛ كان قد تخطّى منتصف العمر، وكان وجهه ذو التجاعيد ينبئ عن صفتين التقتا معاً، مكرٌ عظيم وطيبةٌ مرحة، كان هذا هو جابر بن فرج، زعيم فرع سويحيت من فخذ البحيْح، من قبيلة آل مرّة، أكثر القبائل شدة في تقاليدها من بين كل قبائل وسط الجزيرة

العربيـة، وسادة تلك الصحـراء الفسيـحة التي ينبئ اسـمها حـقيقـة عنها - لولا احتـلالهم لها- صحـراء الربع الخالي. صدّقـته -إذ لم يكن هناك مـا يدعوني ألاّ أفعل - حين قال لي إنَّه عـبر في جماعة من عـشيرته الرمال الجنوبيـة نحو ساحل البحر الجنوبي، والذي نظر إلـيه ـ على حد تعبيره- والنجـم القطبي خلفه. كانت الغاية من حملاتهم هي غزو قبائل الـوهيبي الساحلية والعوامر والدروع، إذ أخذوا منهم أعداداً من الإبـل العمانيـة ذات القيمـة العالية مـن نوع فرحة (وهي بيـضاء اللون)، ونوع صفـرا (وهي رمادية). أخبرني جابر الـكثير عن طبائع قبـيلته وعن حيـاتهم في واحـتهم يبـرين، وفي الخيـران أو الآبار المالحة الواقـعة بين الـرمال، وسأتعرض لها لاحقاً.

وأخيـراً هناك مترك بن عـمارة من قبـيلة آل شامـر، وهم أقرباء العجـمان، ويذكـرون أنّ لهم صلةً مع قبـائل يام التي تقـيم في نجران وفي الجنوب الغـربي، وديارهم هي التلال العالية والأودية شديـدة الانحدار بجبل عليَّة، وهو ذلك الجزء من طويق الذي يقع جنوب العـارض وشمال الفرع. كـان مترك حـادي ركبنا في المراحل الأولى من المسيـرة، ومرّة ثانيـةً خلال الأيام الأخيـرة، ولذلك ما لبث أن صار ـ وظلَّ بعدها - رفـيقي الدائم، وبالرغم من خلافات كثـيرة حدثت إلا أنه بقي صديقـاً موضع التـقدير، لا ينضب معـينه من الفكاهة وحسن التـقدير، وذو معرفة ممتازة بالنباتات يبزُّ فيهـا بقية العرب المولعين بالنباتات. كما أن العربي يولد ماهراً في الركوب وسـيّداً للإبل، فإنه يولد عالماً بالنبـاتات الاقتصادية، إذ تعـتمد رفاهة حيواناته على معرفته بحشائش الصحراء، ولذلك فإنّهم حين يسيرون تلتصق أبصارهم بالأرض بينما لا تكفّ ألسنتـهم عن الحديث عن مزايا هذا النبات أو ذاك كعلفٍ للإبل.

أمّا معرفتهم بالحشرات والطيور فهي تكاد تنعدم إلاّ من معرفة بأسماء قليلة. أمّا معلوماتهم عن الحيوانات الوحشية التي تمشي على أربع فهي معرفة ضبابية أوليّة. كان متـرك ضخم الجثة، تعـوزه الرشاقة وكان قـوياً صُلباً كالفولاذ، قـضى شبابه ابتداء من سن العاشرة في النهب وقطع الطريق في ذات الإقليم الذي كان عليه أن يقودنا عبره الآن. كان عمره في بداية الثلاثـينيات وقد هجر نمط الحياة القديم قبل سنوات قليلة من قبولـه العمل في خدمة ابن سعود الذي جـعل مهنة قطع الطريق غير مربحة بتبنِّيه سياسة عنيفة ضد مخالفي القانون.

عندما جلسـنا على قمّة سلسلة تـلال الدويْرة في اليوم الثاني للـرحلة أفضى إليّ مترك ببعض مزاياه، لمعتْ خدوده المحمرّة المنقرة وأنفه الأفطس بالحماسة عندما كان يخبرني عن بعض قصص شبابه الطـائش وعن زوجته الوحيدة وأبنائه الصغار الذين تركهم خلفه في خـيام أهله في العرمة، وعن النباتات والحـشائش الموجودة حولنا، والتي جمع لي منها مجموعة ممثلة لها دون أن أطلب ذلك منه، مع إصرار بأن أكتب ما يُمليه علـيّ من قائمة توضح أسماء واستخـدامات كلٍّ منها. لم أجد من بين الأعراب الذين التـقيت بهم خلال تجوالي من يتـفوق عليه في الاسـتعداد والفخر بأن ينقل علمه ومعرفتـه للآخرين، ولم أحمل لأيٍّ ممن التقيت بهم شعوراً مماثلاً بالإعجاب الحقـيقي. لقد كان يرافقني بين الوقت والآخر أثـناء إقامتي حتى غـادرت الجزيـرة العربيـة، التي تركـتـهـا وأنا آسف لأن الظروف لم تسـمح لي بالاستجابة لدعوته الودودة لقضاء وقت معه في خيام عرب آل شامر.

وتابعنا سـيرنا بعـد الظهر فـي الأودية وفوق التـلال التي تقع جنوب الوادي لمسافةٍ امتدت اثني عـشر ميلاً حتى بلغنا الموقع الذي نصبنا فيه خـيامنا للمبيت في

طرف سلسلة تلال فرزان بالقرب من القمم. وجدنا في منتصف الطريق قريباً من الطرف الجنوبي لسلسلة تلال حُفَيْرة، وجدنا البئر الوحيدة بحفيرة وقد حفرت لعمق خمس قامات في منتصف رقعة دائرية عريضة تربتها من الحجر الجيري، وكانت مياه البئر راكدة وقد تغيّر لونها، وتفوح منها رائحة كريهة، لعله لم يُسحب منها شيء من الماء لشهور خلت. تُعد هذه البئر تابعة لفرعين من آل شامر هما الفرسان والجنيفر، وينتمي مترك للفرع الأول. كانت تحيط بالبئر دائرة من مخلفات الضأن السوداء التي غيّرت الشمس لونها.

يسمى الشعيب الذي يقع بين هذه النقطة وسلسلة تلال فرزان، التي تقترب الآن بالتدريج من طريقنا، يُسمَّى شعيب فرج وينحدر نحو الوادي، ولكن يبدو أن ليس في الإمكان الوصول إليه نظراً لوجود حاجز الكثبان الرملية الذي أشرنا له من قبل. كانت الكثبان في هذا الموقع ذات عرض كبير رغم أنها كانت خفيفة. وعندما اقتربنا من الخرج وصارت أول نخيلها في مرمى أبصارنا، اعترضتنا واحة السلمية التي ليس هناك ما يُقال عنها. سعت الشمس الآن نحو الأفق الغربي، فاحترمنا التقليد العربي الذي يمنع السعي للاستضافة في المساء، ونصبنا خيامنا على أعتاب الخرج، على بُعدٍ يسير من روابي فرزان، تاركين الدخول لذلك الإقليم لصباح الغد.

الخرج الشمالي:

تسلّقت قمة الرابية الأعلى من الروابي المزدوجة، مع مترك وقليل من الآخرين لأُمعن النظر قبل أن يلفّنا الليل بستائره السوداء، وأجلنا البصر لنرى مشهداً ممتداً متنوعاً. امتدّ ناحية الشمال الغربي، وعلى مدِّ البصر المنظر الضبابي الأربد لوادي حنيفة بين طرفه الأقصى ناحية سلسلة تلال فرزان ـ التي كانت تمتدّ نحو الغرب من النقطة التي كنا ننظر منها ـ وبين جرف الجبيل الشاهق. واقترن جرف الجبيل هذا مع تلال خفيفة قليلة التموّج في ناحية الشمال، وعلى مقربة من موقعنا هذا، وهو الموقع الذي يجري فيه السلي منحدراً نحو وادي حنيفة، بينما يستمر وادي حنيفة في طريقه بين جانبين جدّ خفيفين، لا يكادان يريا حتى يصل إلى الشديدة، وهي سلسلة تلال طويلة وخفيفة، وتمتد من الغرب للشرق. وهذه السلسلة، بالإضافة لسلسلة أخرى شبيهة تغطيها الرمال تُسمَّى برقة سارة، يكوّنان ابتداءً من هذا الموقع حافة وادي حنيفة من جهة اليسار، ولاح على البعد في اتجاهٍ يميلُ قليلاً إلى شرق الاتجاه الشمالي، ومن خلال الفرجة العريضة التي تفصل طرفيْ الجبيْل والشديدة، لاح سهل الترابي، بينما ظهر الشكل المعتم للعرمة من خلفه. وعندما رأيت روابي جبل عقلة الصغيرة، التي كنّا قد خيّمنا بالقرب منها في نوفمبر (تشرين الثاني) في طريقنا للرياض.

سرَتْ فيَّ رعشة السرور التي تجلبها رؤية مَعْلَمٍ قديم تعرفه في وسط إقليم غريب. وفي الإطار نفسه كانت سلسلة الشديدة أيضاً صديقاً قديماً إذ كان قد أشير لي على البعد لها في نفس المناسبة، عندما تجاوزنا العرمة، وأخبروني حينها أنّ الخرج تقع من ورائها، وكان ذلك صحيحاً. كان الشكل العاري لعليّة ولمرتفعات

قصيعة الخفيفة، تقع إلى الجنوب الغربي والجنوب الشرقي على التوالي، وكان يبدو أنهما يلتقيان في الطرف القصي من وادي الخرج في جوار خشم خرطم، وهي أرض رأسية ثقيلة جداً وشديدة التحدّر تنتأ مثل قمة الجبل من سهول الصحراء العظيمة والتي كانت تحجبها عن أنظارنا في هذا الموقع تلال قصيعة. كانت الصحراء المحجوبة عنّا تُسمّى البياض، وتشكّل في حقيقة الأمر بداية الربع الخالي، إذ لا يوجد في كل طولها وعرضها ولا في الرمال التي تقع خلفها ماء ولا يسكنها بشر.

هكذا لاح لنا الإطار الذي تقع الخرج في داخله، والتي كانت يوماً مركزاً لإمبراطورية عظيمة امتدّت من وادي الدواسر في الجنوب وحتى القصيم، ولكنها الآن كالمحمل تقلّصت لتصبح في حالة تبعية للعاصمة المركزية للعارض. لا يعدو الوادي الذي تقع فيه الخرج أن يكون حوضاً طويلاً ضحلاً يتخذ شكل مثلث متساوي الضلعين، قاعدته وادي حنيفة ويمتدّ نحو الجنوب حيث تقع قمّته في خشم خرطم، وتنتفخ جوانبه قليلاً - في شكل غير منتظم - نحو الغرب. يبلغ أقصى طول للوادي من الشمال للجنوب نحواً من خمسة وثلاثين ميلاً ، ويتناقص عرضه باضطراد من حوالي ثمانية أميال في القاعدة لأقل من نصف ميل في الفرجة بين نتوء خرطم وهضبة طويق، والتي ينحدر عبرها أحد الأنهار الثلاثة التي تجعل الخرج نقطة الارتكاز لمستودع المياه في وسط الجزيرة العربية.

هذا هو أول الثلاثة: شعيب العقيمي، والثاني وادي نساح الذي ينحدر من جبليْ البخرا وخشم الضبي اللذين لاحظتهما من قبل من على البعد إبَّان رحلتي نحو الغرب من وراء نفود قنيفذة، وينطلق وادي نساح ليجري على جانبيْ طويق

ويدخل الخرج من ركنها الشمالي الغربي، بطولِ المنحدرات الجنوبية لسلسلة تلال فِرزان. والثالث هو وادي حنيفة. ويعطي العقيمي مثالاً ممتازاً للعادة العربية المربكة، وهي إعطاء تسميات مختلفة لأقسام من نفس الوادي أو نفس سلسلة التلال، وهو الشيء الذي أعطيت له مثالاً من قبل في حالة الأقسام المختلفة من وادي فاطمة. فالعقيمي هو الاسم الذي يطلق محلياً في الخرج على ذلك الجزء الذي يجري بجانب طويق، وهو القسم الثالث من وادٍ عظيم يبزّ وادي حنيفة نفسه، وقد التقينا به من قبل في الناحية الغربية من مرتفعات نجد. مصدر هذا الوادي العظيم هو سلسلة تلال العلم، ويجري في البداية تحت اسم وادي السِرّه[1] نحو الجنوب، ثم نحو الشرق بطول الجانب الشمالي لجبل صبحا ورمال نفود الدحي، وحتى حافة طويق؛ وهناك يتغيّر اسمه ليصبح شعيب بِرك، فيتخطى الحاجز ليظهر بعد ذاك بِاسْمِ العقيمي. إنّ العربي منفعي في كل شيء، وأكثر ما يبدو ذلك في طريقته في التسميات الجغرافية، والتي يرتطم كلّ المسافرين في الجزيرة العربية برتابتها المضجرة. تكون التسمية شحيحة أحياناً، وتارة أخرى مسرفة، وتتبع في هذا وذاك المعالم الطبيعية للإقليم نفسه.

لا يوجد في الجزيرة العربية ما هو أهم من الماء الذي لن يعيش في غيابه إنسان أو حيوان، ولكنّ الماء ليس موجوداً في كلِّ مكان، ولكن حيثما وُجد يرى العرب ضرورة تركيز هذه الحقيقة في الأذهان بإعطاء المكان اسماً، ثمَّ ينسحب اسم موقع الماء على كلّ معالم الإقليم المحيط به. لنأخذ مثالاً لذلك؛ هناك مصدر هزيل للماء، إلى الجنوب قليلاً من الخرج يُسمّى مشاش النسوان، ومن خلفه

(١) راجع الجزء الأول ص٢٤٤ . (المؤلف).

توجد صخرة خفيفة هي جزء من البياض، وتنتهي في أرض رأسية؛ ويجري من هذه الأرض الرأسية جدول صغير نحو العقيمي. تسمى الصخرة الخفيفة ضلع مشاش النسوان، وتسمى الأرض الرأسية خشم مشاش النسوان، كما يُسمى الجدول شعيب مشاش النسوان.

ويلي الماء في الأهمية الحشائش في بلد يعني الجفاف فيه إبادة قطعان الماشية والإبل. لا تجري المياه في الأودية الطويلة متصلةً كما تفعل في الأنهار إلاّ نادراً، لذا يصيب بعض أجزاء الوادي الجفاف بينما تنتعش أجزاء أخرى بسيول محلية فتزدان بالحشائش، وقد تفصل بين الجزء الأخضر والآخر مسيرة أيّام عديدة، ويُذهب بالقطعان بحثاً عن تلك الرقاع الخضراء، وإن لم يجدوها قد يتسبب ذلك في هلاكها؛ لذلك فإنَّ العربي يقسّم الوادي إلى أجزاء ويُعطي لكلٍّ اسماً حتى يتسنى له أن يعرفه به. وعندما تأتي الأنباء بوجود مواقع خضراء هنا أو هناك في وادٍ يبلغ طوله مئات الأميال، أو في إحدى روافد الوهاد فيمكن للبدوي أن يضع يده بدقّة على الرقعة المبشّرة، على الخارطة التي يستحضرها في ذهنه، رَغم أنّ القليلين فقط هم الذين يمكنهم ربط الأجزاء المبعثرة ليصوغها بذكاء في وحدة واحدة، أو ذلك الذي يعلم أنّ هذه الأجزاء المبعثرة ما هي في حقيقة الأمر سوى قطعة متكاملة.

يقترن العقيمي ونساح وحنيفة في الركن الشمالي الشرقي للإقليم إلى الشرق من واحة اليمامة ليكوّنوا معاً منخفضاً عريضاً ذا تربة طفالية وطينية، مشبَّعةٍ بالأملاح وتغطّي أجزاءَ كبيرة منها رمالٌ متراكمة تتَّجه نحو الشرق لمسافات بعيدة. يقولون إنَّ هذا المنخفض - وقد كان مهداً لنهر قديم - يُمكن تتبُّعه حتى الحاجز

الرملي للدهناء الذي لا يبعد كثيراً، ثمَّ يمرُّ دون حدود قاطعة ولكن دون أن تخطئه عينٌ عبر الرمال، وبعدها يصير حوضاً ضحلاً عريضاً لعلّه لا يختلف كثيراً عن الباطن، ثمّ يمر عبر الإقليم السهلي الفسيح حيث يعترضُه الطريق الذي يربط بين الأحساء ويبرين، وبعدها يمكن تتبعه إلى الساحل الشرقي جنوب شبه جزيرة قطر. وفي هذا المهد توجد آبار الوسيعة في المنطقة التي يعبر فيها العرمة. تبدأ إلى الجنوب من هذا الخط حدود آل مُرّة، بينما تحدُّهم من الغرب - إن كان في مقدورنا أن نتوخى الدقة في أمر كهذا- الحافة الغربية للبياض، من رأس صبحا إلى أرض مشاش النسوان الرأسية، ثم تنحني حدودهم بعدها نحو الجنوب تقريباً بطول الخط الموازي لخط طول ٤٧ْ شرق إلى حدود حضرموت.

تتداخل مسارات الدواسر مع مسارات آل مرّة حتى الحدود الجنوبية للقبيلة الأخيرة ، على خطٍّ وادي الدواسر نفسه، ومن ثمّ تتداخل معهم مسارات قبائل يام من تلك النقطة في اتجاه الجنوب.

يجري شعيب الثليماء - فيما أخبروني- خلف سلسلة تلال القصيْعة التي كانت مرئيّة لنا، ليصرّف مياه المرتفعات نحو صبحا، ومن بعد ذلك تقع آبار قُبشَات الصغيرة الأربعة إلى الجنوب من صبحا، بالقرب من جبلَيْن خفيفيْن مخروطيّين من البازلت. وبالقرب من هذه الجبال توجد آبار الأمغر، بينما يقع مكان السقيا المسمّى العميْدي إلى الجنوب الشرقي منها، وإلى الجنوب من ذلك تقع أبو حداد وبها ستة أو سبعة آبار - يبلغ عمق الماء فيها خمس قامات -بالقرب من سفح جبل أم الغربان في مهد شعيب يُسَمّى الخوار، ومن ورائه تقع مرتفعات البياض.

كان الليل منعش البرودة بفضل نسمات شمالية. أفقنا صباح اليوم التالي في وقت يسمح لنا بزيارة متفحّصة للمستوطنات التي رأيناها تنقّط الوادي من رابية فرزان. نهضت من فراشي وأنا لا أشعر بالراحة، وكأنني تعرضت لبرد. كانت القراءة في مقياس الحرارة ٥٩° فهرنهايت في الساعة الخامسة صباحاً، فتشوّقت للشمس ولكن حرارة الطقس المتزايدة بعد شروقها فشلت في علاجي، كما ساهمت استضافة أميريْ السلمية واليمامة في ازدياد حالتي سوءًا. وعند بلوغنا الموقع الذي أقمنا فيه مخيّم القيلولة في منتصف النهار أفادني العلاج القاسي الذي اتبعته، حيث صمتُ عن الطعام وخلدت للنوم بعد تناول البراندي، ولقد شكا معظم زملائي من نفس الأعراض، واستنتجنا أنّ السبب وراء ذلك كانت مياه الحائر التي تمّ سحبها من طرف البركة الراكدة في طرف الوادي، وليس من وسط الوادي الجاري؛ وإن لم تخنّي الذاكرة، فلقد كانت هذه المرّة الوحيدة التي شكوْت فيها من عِلَّة بسبب الماء أثناء إقامتي في الجزيرة العربية، ولقد كانت المرّة الوحيدة التي شربت فيها من مياه قذرة راكدة.

إنّ سيول الجزيرة العربية تجلب الصِّحَّة عاماً بعد عام للواحات التي تقع في مساراتها لتغسل عنها أدران وأمراض الموسم، ولكن تكمن الخطورة في البرك التي تتكوَّن في نهاية المجرى بالقرب من المستوطنات بعد أن يوشك معين المجرى أن ينضب. لقد كانت تجربة اليوم درساً استوعبته من أجل المستقبل.

كنّا على أهبة الركوب عندما لفتت انتباهي ضحكات مكبوتة للرفاق وهم يوجهون أبصارهم نحو مترك الذي نهضت ذلوله وفرجت ساقيْها وبدأت تتبول بغزارة كما تفعل الإبل عندما تنهض في الصباح، وعندها مَدّ مترك عنقه ليستقبل

البول المفيد على رأسه، بينما كان يستخدم يديه والمشط لتمشيط جدائله المجعدة التي كانت تقطر بولاً. وأشرق وجهه المحمرُّ بالسرور عندما نهض بعد الفراغ من المهمّة ليمشط للخلف شعره وهو يوضّح لي أنّ هذه الطريقة في تنظيف الشعر كانت شيئاً معتاداً في الحياة البدوية. لقد تعرَّفت من قبل على استخدام البول للعلاج إذ يعدونه مانعاً فعّالاً ومزيلاً للطفيليات الدقيقة، ولكن استخدامه الغريب لغسل الشعر لم يخطر لي على بال[1].

عاودنا المسير، وبعد ياردات قلائل مررنا بين رابيتيْ فرزان، من فوق سرجٍ خفيضٍ يربط بينهما، ووجدنا على المنحدر الذي يقع مباشرة عن يسارنا نبع فرزان، وهو مصدر قناة الريِّ الخفيّة التي تجري شرقاً نحو نخيل السلمية التي تبعد نحواً من ثلاثة أميال.

إنّ تنمية الجزء الشمالي من الخرج تجد العناية الخاصة للإمام عبدالرحمن الذي حدّثني مرّةً أنَّ مصدر فرزان وقناته وجدا من أبيه فيصل العناية والاهتمام، ولكنه تعرّض لكثيرٍ من التخريب المتعمّد والإهمال المستديم في عهد الخراب والفوضى الذي نشب بين عبدالله وسعود.

لقد تولّى الإمام الأمر بنفسه منذ عهد قريب، ويأمل أن يعيد للبساتين الملكية في السلمية ازدهارها القديم. وفي هذا الإطار أبدى الإمام آماله في أن أجد الفرصة لأقوم بفحص الموقع والتحقّق من جديّة العمل الذي يجري هناك، وأن أعود إليه بتقرير عن ذلك. وفي الليلة السابقة لبدء الرحلة أرسل إليّ رسالتين مع

(١) راجع الجزء الأول ص ٤٦٥ . (المؤلف).

أحمد بن ثنيان وإبراهيم ليذكرني بالوعد الذي قطعته على نفسي لتحقيق رغبته، وذكر بهذه المناسبة أنّ العمال المقيمين بالموقع قد أبلغوه بعثورهم على «مكاتيب» أو نقوش كتابية قديمة. وعند وصولي إلى المكان أسعدني أن أجد أنّ رئيس العمال الذي كان في الموقع مع عماله البالغ عددهم أربعين رجلاً، كانت لديه أوامر بتسهيل مهمتي، وقمت في صحبته وصحبة بعض عمَّاله بفحص دقيق للعين والقناة وللخرائب في الجوار، ولكنّ الذي كدَّرني أنني فشلت في أن أعثر في كلّ الأنحاء عن أقل أثر لأيّ مكتوبات. وعندما أخبرتُ ابن سعود لاحقاً بنتائج جهودي ليبلّغ بها أباه، قدّمتُ نصيحة حكيمة فيما يختصّ بأمور الرَّي، مع اقتراح بأنّ إجراء المزيد من الكشف عن الآثار الموجودة بين الأنقاض قد يؤدّي لاكتشاف كتابةٍ على حجر تُفصح عن مواقع أخرى لمصادر المياه الخفيَّة، وعن أسرارٍ لا تقدّر بثمن حول مشاريع القدماء الخاصة بعمليات الرّي. وحسب علمي لم يؤبه لاقتراح الاستكشافات، وقنع الإمام بتنفيذ خطة إزالة الطمي التي اضطلع بها.

يخرج النبع من باطن الأرض من أسفل فوهة غير مبطَّنة لحفرة عمودية تهوي إلى عمق أربع قامات في جانب التل. كانت الحفرة في الوقت الحالي معطلة بصفة مؤقتة نتيجة لتراكم أكوام من الحجارة المهشمة وبقايا النخيل والملاط، والتي دُفِعَ بها أسفل الحفرة طبقة إثر طبقة لمنع مرور الماء؛ لهذا كان الجدول -باستثناء برك صغيرة مبعثرة هنا وهناك على امتداد الجدول - جافاً، وكان العمال يبذلون الجهد خطوة فخطوة لتنظيفه من أسفله، أي في السلمية متجهين إلى أعلى نحو المصب، وكانوا في وقت زيارتي قد بلغوا منتصف الطريق بعد أقلّ من شهرين من بداية العمل. عندما يتحرر الجدول سيمرّ الماء منه عبر نفق مخفي قطره ثلاثة أقدام أو أكثر، من النوع الفارسي المعتاد، والذي يُعرف هنا باسم خرز أو ساقي. وبعد

فواصل منتظمة -تبلغ عشر أو خمس عشرة ياردة- توجد فتحات دائرية تهوي من مستوى سطح الأرض إلى المحيط الأعلى من النفق لتسهيل مهام التفتيش الدوري وأعمال الترميم. أمّا في الجزء الأعلى من المجرى فتصبح سلسلةً متعاقبة وقد نُحِتت في صُمِّ الصخور على جانب التل لعمق أربع قامات، وكلما اتجهنا نحو الأسفل يرتفع منسوب الماء بانتظام ليبلغ العمق قامتين ونصف فقط في طرف المجرى الأسفل.

كإجابة عن تساؤلاتي حول النقوش التي أبلغوا بها الإمام من قبل، ذهبوا بي من الساقي شمالاً نحو نتوء خفيف شبه دائري وتغطيه الرمال، ووجدت نفسي في وسط صقع رملي تتناثر فيه صخور مهشمة، ويمتد بعرض كتف السلسلة فوق منطقة يبلغ طولها نصف ميل، ويقلّ عرضها عن ذلك قليلاً. وقال لي الدليل: «لا توجد كتابات هنا، لم نجد كتابات، ولكن ما كتبناه للإمام كان عن هذه الآثار القديمة. انظر إليها حولك» أصابني شعور مرير بالإحباط، وتوجهت لأرى الموقع الذي تغطيه الصخور، لعلّها مقبرة حديثة، لولا كتل الصخور الكبيرة بها لما كان هناك فرق بينها وبين بعد تجشمي لذلك العناء والإحباط مكافأةً. كانت الحجارة منتظمة في شكل دائري حولي محيطةً برواب من الأنقاض لاحظتُ بينها كتلاً بيضاء من مادة شبيهة بالملاط، لعلّها من الجبس لابدّ أنّ هذا كان حطام أعمال يدويّة أنجزها الإنسان في عهد قديم. لعلها كانت مقبرة لكنَّها لم تكن ذات طابع حديث. بيد أنَّ الاحتمال الأكبر هو أن تكون مدينة قديمة[1] دُفنت معها في خرائبها أسرار هويتها وتاريخها والفاجعة التي أودت بها.

(١) كنت قد كتبت شيئاً عن هذه الخرائب (في أوائل عام ١٩١٩م) ولكني صرفت النظر عن تضمينها في هذا الكتاب لأنّه لم تكن هناك من وسيلة لكشف أسرارها بما لا يدع مجالاً للشك. ولكن السيد =

يتناثر في هذا الحقل الأثري - بصورةٍ ليس لها نمط واضح ودون تماثل- عددٌ لا يحصى من الدوائر ذات الأحجام المتباينة، ولكن بأشكال متطابقة. كان قطر الغالبية العظمى من هذه الدوائر في المدى بين خمس إلى عشر ياردات. لكن كانت توجد هنا وهناك- خاصّة في الأجزاء الشرقية من الموقع- دوائر أعظم، وكانت أعظمها جميعاً بقطر لا يقل عن خمس وأربعين ياردة، وتوجدُ في الطرف الشمالي حيث ترقد الرمال المتراكمة على الأطراف الخارجية للسلسلة، والتي تأتي من وادي حنيفة. لا يقل قطر أكبر هذه الدوائر عن خمس وأربعين ياردة.

كانت الدوائر الأصغر تتّخذ في العادة شكل روابي صغيرة من التراب يحيط بها طوال محيطها - بعد فواصل قريبة - كتلٌ حجرية منحوتة بخشونة ومتراكمة فوق بعضها لارتفاع يبلغ قدمين أو ثلاثة. كما كانت توجد في هذا المكان كتلٌ ذات بناء شبيه مدفونة في أكوام من الصخور المهشمة والحجارة الصغيرة والملاط

= د.ج هوجاث أكدّ أنها خرائب مقابر وليس خرائب مستوطنة. كانت المواد المكومة لتتراكم فوق أساسٍ من الحجارة ولكن أبلتها عوامل المناخ ليظهر الأساس الحجري أسفلها (راجع مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، مارس ١٩٢٠م). يرى الكاتب أنّه من الأجدر أن نُعزي وجودها لقوّة غير عربيّة، ولكنه يقرُّ أنّ الدلائل المتوفرة لدينا لا تسمح لنا بالتقدم في اتجاه صحيح، وأن اقتراح ربط هذه الآثار بالفينيقيين تواجهه عقبات كبيرة تمنع قبوله على ضوء المتوافر حالياً من المعلومات. كان قد قَدَّم هذا الاقتراح السير توماس هولدتش على ضوء تشابه هذه الحجارة الدائرية الموجودة في الخرج مع خرابات كَشَفَ عنها في البحرين ثيودور بنت ووضعها أمام الجمعية الجغرافية الملكية في عام ١٨٩٠م. (راجع محاضر الجمعية الجغرافية الملكية، يناير، ١٨٩٠م). ولكن وفقاً للسيد هوجارث هناك اعتراضات تمنع قبول وجهة نظر بنت التي تقول إنَّ الحجارة الدائرية البحرينية أصلها فينيقي (راجع مجلة الجمعية الجغرافية الملكية، ديسمبر، ١٩٢٠م، ص ٤٦٣-٤٦٤) (المؤلف).

ويعلو مركـزها لارتفاع لا يتعـدّى ثلاثة أو أربعة أقدام فـوق سطح الأرض. بينما كان هذا البناء المركزي مفقوداً في بعضها.

ظهر في الدوائر الأكبـر خطٌّ من كتل حجرية كبـيرة تنصف الدائرة من جانب لآخر، وفي أكبر هذه الدوائر كان هذا الخط جليّاً جداً، كما كانت في داخلها أربع دوائر أصغر، واحدة في كلِّ جزءٍ من أجزاء الدائرة الأربعة. كانت تسمُ حدود هذه الدائرة العظيمة كتل حـجرية يبلغ ارتفاعها ثلاثة إلى خمسة أقـدام، وتبعد كل كتلة منها حوالي ياردة أو اثنتين من الكتلة المجاورة، وفي بعض الأحـيان كانت المسافات تصيـر أكبـر من ذلك. كان الجـزء المركزي من المساحـة الداخلية يرتـفع لأربعة أو خمسة أقدام فوق سطح الأرض، وكان يشقّـها خطّ من الصخور الجلمودية العظيمة التي ترتفع هي أيضاً لأربعـة أو خمسة أقـدام، ويبلغ طولها أكثـر من ذلك قليلاً، وترقد بين الـشمال والجنوب مع ثغـرة فسـيحة في نـقطة الوسط تتجـه من الشرق للغرب. عندما وقفت في هذه الثغرة مواجـهاً الشمس التي كانت قريبة من الأفق، قفز إلى ذهني وصف بلجريف[1] للأعجوبة الحجرية في العيون بالقصيم، وتأمّلت وفكرّت في احتمـال أنَّ الخرائب التي أقفُ بإزائها قد تكون مخلّفات مـعالم أخرى شبيهة تعود للأيّام التي كانت الأصنام معبودة فيها لدى العرب.

(١) كتاب W.G.P الجزء الأوّل،الفصل السادس، ص٢٥١. يذكر بلجريف نقـلاً عن مصادر محلية وجود معالم شبيهة في الرس والحناكيّة، ولكن وفقاً لعلمي فإنّ آخرين زاروا العيون لاحقاً أهملوا تأكيد ما ذكره بلجريف عن الدوائر الحجرية التي ادعّى بلجـريف أنّه زارها. راجع أيضاً الفصل التاسع ص ١٤٠-١٤١ (الحاشية). (المؤلف).

لا أستطيع أن أحكم إن كان التصوّر الذي قفز إلى مخيّلتي يعبر عن الحقيقة أم لا، وهو التصور الذي ينشأ عندما يستحضر الإنسان في ذهنه صورة لأناسٍ يسكنون في مساكن ذات قباب، أو مساكن شبيهة بخلايا النحل، بناؤها من طينٍ يقوم على أساسٍ من أعمدة حجرية، مع وجود دعامة مركزية من الحجر أيضاً. أو التصوّر الآخر الذي يستخدم فيه الإنسان المنطق ويربط بين سكان هذا الموقع القديم وبين بناة الخرز الذي وصفناه سابقاً، وكلاهما يحمل الاسم الذي يعيش حتى الآن، وهو اسم السلسلة التي يقعان بجوارها؛ سلسلة فرزان: فرسان: الفارسيين[1].

أشار داوتي أن «للعربي اهتماماً فطرياً وبدائياً بأصول الكلمات وتاريخها»، وعلى هذا الأساس لا يسعنا أن نتردد في قبول النظرية التي قدمتها هنا والخاصة بتقارب الأسماء، إن تعضّدت على أسس أخرى أيضاً. يبدأ العربي بنطق اسم ما نطقاً غير صحيح، ومن ثمّ يكتب هذا النطق المحوّر مخطئاً في الإملاء، ثمّ يقوم بجرأة ليُخَرّج معنى الاسم الناتج عن الخطأ المزدوج بتعليلٍ عليل. اسم الخرج نفسه يبدو لي على أي حال مثالاً جيداً لهذا الخطأ ذي الأبعاد الثلاثة، إذ أن سبب تسمية الإقليم - وفقاً لإفادة ابن سعود- هو أنّه كان فيما مضى من زمان المصدر أو

(١) يبدو أن المؤلف قد نحا حول هذا الاسم منحًى كان معتمدًا على تشابه حرف الزاي مع حرف السين في فرزان وفرسان، والصحيح أنه لا جمع بينهما ولكونه ليس عربياً فقد اجتهد في ذلك محاولاً وضع مبرر لذلك التشابه مع أنه واضح فيه التكلف. (المراجعون).

«المخرج» لمؤن مكة والمدينة من الحبوب[1]، وهو تعليل لم أجد عليه مأخذاً سوى أنّ به قدراً من البساطة، لا تجد فيمن يعيشون خارج الجزيرة العربية من يقبله دون تقديم الحجّة عليه، وهذه الحجة يصعب الحصول عليها في حقيقة الأمر، لقد غامرت باشتقاق الاسم من ظاهرة طبيعية مدهشة في داخل الإقليم نفسه، ولكنَّني الآن أسبق الأحداث.

إنني أدينُ لجابر المرّي بالمفتاح الذي أوحى إليّ أنّ اسم الخرائب له أصل فارسي، إذ كنّا وقوفاً بجوار الخرز فتفحّص القناة والفتحات العمودية عندما أخبرني بأنه رأى في القطيف نظامَ رِيٍّ مطابق لهذا في حالة عمل؛ والمعروف أنّ الأثر الفارسي كان مهيمناً بالقطيف في العصور الوسطى، وكما سنرى في وقت لاحق في إقليم الأفلاج وكذلك في السّر والقصيم، فإنّ نظام الخرز كان معروفاً في أجزاء أخرى بالجزيرة العربية بخلاف تلك التي كانت تحت الأثر المباشر للفارسيين، في حين لم تكن هناك دلائل مؤكدة أو إشارات معقولة تشير لاقتراب الفارسيين منها. ولكنّ المدن - إن جاز لنا إن نسمّيها كذلك - التي تجاور هذا النوع غير المألوف من قنوات الرّي (الخرز) تشبه بعضها، وتختلف -حسب علمي- عن بقية المدن في الجزيرة العربية، وهذا أمرٌ له أهميته ويدعو للتأمُّل. إنّ المواقع

(١) تعد منطقة الخرج من أخصب أقاليم اليمامة قديمًا، وهي منطقة زراعية ذات غلّة وإنتاج، وخراجها يغطي حاجة (الحرمين الشريفين) سابقاً، وهذا سبب تسميتها بالخرج. للتوسع انظر: ابن خميس، معجم اليمامة. ج١، ص٣٧١. (المراجعون).

الخربة هي معالم معتادة في الجزيرة العربية إذ أنها نتاج السنوات الطويلة التي تعاقب فيها الرخاء مع الحروب المدمِّرة، ولكن بملاحظة الخرائب التي تعود للفترة التاريخية المهمة التي مَرّت على وسط الجزيرة العربية في القرنين أو القرون الثلاثة السابقة يمكننا أن نتتبّع مظهرين يميِّزان هذه الحقبة ومستوطناتها، والتي استدامت حتى أيّامنا هذه. أولاً: كلُّ المباني كانت طينية دون استثناء ولا تُستخدم فيها فنون البناء، وثانياً: كانت البيوت تُبنى في قلب الواحات وليس في جوانب التلال العارية. والاستنتاج الطبيعي هو أنّ من قاموا ببناء مساكنهم باستخدام الحجارة على منحدرات سلسلة تلال فرزان بعيداً عن بساتينهم وحقولهم التي كانوا يزرعونها في حوض الوادي، كانوا أناساً تختلف طريقة عيشهم اختلافاً بيناً عن طريقة العرب الرعاة القدامى منهم والمحدثين؛ لذا يُفترض أنهم ما كانوا عرباً ولكن غرباء أقاموا في الأرض الغريبة. وإن كان ذلك كذلك، فَهُمْ في غالب الأمر فارسيون توغّلوا نحو الداخل في الوقت الذي كان فيه الساحل تحت قبضتهم[1].

قفلنا عائدين من موقع خرائب فرزان إلى القناة، وبعد أن تتبعّنا مجراها لمسافة نصف ميل توجّهنا نحو الشرق عبر السهل الرملي الواقع بينها وبين حوض وادي حنيفة. ثمّ سرنا عبر أراضي الحبوب بمستوطنة البدْع والتي تتخللها -بعد فواصل-

(١) استنتاج المؤلف هذا غير صحيح وحاول فيه تأكيد ما ذهب إليه من كون اسم فرزان هو تحريف لكلمة فرسان، وما ذكره المؤلف من مظاهر هي في الواقع سائدة في المنطقة ولا تدل على تأثيرات من خارج المنطقة. (المراجعون).

خرائب طـينية لمبـاني المزارع المهجـورة وأيضاً خمـس عشرة من الآبـار ذات المياه الوفيرة التي توجـد على عمق أربع أو خمس قامات. كانت مسـتوطنة ذات مظهر يوحي بالفقـر، تبلغ أراضيهـا المزروعة حوالي ١٥٠-٢٠٠ فـدان. وعلى الجانب نفسه في أعلى الوادي تقع المستوطنة الشقيقة الأصغر، البديْعة، التي كنا قد رأيناها من مسافة أقرب من الموقع الذي أقمنا فيه في الليلة الماضية.

توجهنا الآن نحـو بساتين نخيل السلـمية على بعد مـيل، وعندها لاحت لنا سلسلة تلال الشديدة وهي تقع مـوازية لنا على اليسار، وتسمُ الحـدّ الأبعد لوادي حنيفـة، بينما لاحت لنا من أعلى المنحدر رابيـة صنبعة التي يفـصلها عن سلسلة الشديدة منخفض روضة حَنِيّة المعشب.

تقع بساتين نخيل السلـمية، التي يحيط بها حائط طـيني قصير متهـدِّم من الشمال للجنوب في مستطيل غير منتظم يبلغ طوله ميلاً واحداً، وعرضه نصف ذلك، ويدخلها «قناة الري» من ركنها الجنوبي الغربـي حيث توجد البساتين الجيـدة وكلها ملك للعائلة المالكة، وبعد ذاك بقليل ينضب معين «قناة الري»، بينما تعتمـد بقية المستوطنة في توفير ما يلزمها من ماء على عددٍ من الآبار التي يُسـحب ماؤها بواسطة الحمير والأبقار،وفي حـالات نادرة الإبل من أعمـاق تصل إلى أربع قامـات. تحـتلُّ القريةُ الصـغيـرة التي قصـدناها الآن زاوية كوَّنهـا النخيل في الطرف الشـمالي الغربي. لم يكن بـالقرية من الأسبـاب ما يدعونا للبـقاء بها طويلاً، إذ دخلنا عـبر بوّابة ناتئة في الطرف الشـمالي، ومررنا سريعاً عبر ما بدا وكأنّه طـريقها الوحيد نحو بوّابة في الطرف الجنوبي، وخرجنا

منها لنجد أنفسنا في وسط بساتين نخيل، ثم تقدّمنا عبر طريق منحنى مسوّر للبيت الريفي «القصر» الخاص بالأمير، وهو مبنى طيني يتميّز بقليل من فخامة عن أكواخ القرويين العاديين، ويقع على حافة بستان نخيل جيّد، علمتُ لاحقاً أنّه أحد البساتين الملكية. ترجّلنا وقادنا أحد خدم الأمير إلى غرفة كبيرة وعالية لكنّها جدّ معتمة، وبعد أن اعتادت أنظارنا على الظلام، اكتشفنا أنّها بلا أثاث إلاّ حصائر ثلاثة توزعت حول موقد القهوة. ولم يكن هناك ضوء أو هواء بالغرفة إلاّ ما يتجشّم منهما مؤونة التسلّل عبر الباب الذي ولجنا منه إليها. وقد وجد رفاقي الوقت الذي سمح لهم بالتهامس حول المكان الذي لم يكن مظهره مضيافاً قبل أن نجد المضيف قبالتنا.

كان سليمان بن عفيصان شاباً، يبلغ عمره نحواً من ثمانية عشر عاماً، وكان قد دُعي ليشرف على شؤون القرية عند مغادرة أبيه سعد بن عفيصان لها. والأخير رجل ذو شهرة كبيرة في نجد، وتشرَّفتُ بلقائه بعد أيام قلائل، وكان قد تمّ اختياره حاكماً لإقليم الأفلاج. كان الانطباع السيئ الذي خلفته فينا الغرفة اتسق مع طريقة صاحب الدار الفجَّة. ولكنَّ التقاليد كانت تفرض علينا وعلينا أن نقبل دورة أو اثنتين من القهوة. وسعدنا مثل ما سَعِدَ هو بإنهاء مجريات الضيافة عند إمرار المبخرة الذي كان إشارة للسماح لنا بالمغادرة. وعندما خرجنا من الغرفة المظلمة نحو الشمس الساطعة وامتطينا الركائب كانت هناك ضحكات مكتومة مرحة اهتزّ لها الرفاق عندما جهر طامي بصوته معرباً عن خيبة أمله لفشله في تهدئة جوعه الذي لا يُكبح.

يبلغ تعداد سكان قرية السلمية نحواً من ٥٠٠ نسمة، بما في ذلك من يعيشون في المساكن المتناثرة حول بساتين النخيل وأغلبهم من قحطان، من قسم آل عائذ الذي تنتمي إليه عائلة الأمير. لاحظت في بساتين النخيل رقاعاً مزروعة بالعصفر وقليل من شجيرات الرمان ومساحات شريطية ضيقة هزيلة من الشعير والخضراوات المختلفة وشجيرات القطن التي تنمو مفرّقة بطول حواف قنوات الرِّي.

عبرنا الآن الواحة بعرضها، ووجدنا خارج أسوارها صَفّاً منفصلاً من النخيل غير متصل بغيره، وتتخلله أبراج حراسة متداعية وكذلك رقعة من أشجار أثل مكتمل النمو يجثم على سلسلة رملية خفيفة. وخلف هذا رأينا مساحات من الكثبان الرملية تمتدّ من جانبي وادي حنيفة وتعبر أمامنا لتتحوّل تدريجياً نحو النفود كلّما تقدَّمنا. كان المكان من حولنا والهواء يعجّان بحيوية جراد صغير فقس حديثاً، ويسمونه في هذه المرحلة من النمو جخاخ، ولا يأكله العرب في هذا العمر. حُفرت هناك بئر منذ عهد قريب في بقعة تم تنظيفها من النفود في منتصف الطريق بين السلمية واليمامة. وبعد أن تخطيناها سببت لنا أمواج الرمال الثقيلة بعض العنت بينما كنا نسير في طريقنا إلى الجنوب قليلاً من اتجاه الشرق قاصدين الركن الشمالي الغربي لواحة اليمامة التي ما بقي منها سوى حطام بئيس من حضارة الأيام القديمة ذات الزخم.

لا بد أن اليمامة القديمة عاصمة المملكة العظيمة قد امتدّت فوق مساحة كبيرة في الزاوية التي تكوّنت بالتقاء واديي حنيفة ونساح، ولم يبق من أثر لها اليوم سوى كتلة متشابكة من النخيل على جانب نساح تحتل حوالي ميل وربع وفي

وسطها أربع قرى صغيرة. أمّا ما تبقّى من المكان فهو غاصٌ بالرمال التي تمتدّ أمواجها المتكوّرة نحو الجنوب من تخوم وادي حنيفة ولا يمنعها من ابتلاع المستوطنة الحديثة سوى حاجز رقيق من سعف النخيل يحيط بجنبها الشمالي، وبدت من تحت أمواج الرمال في هذا الموقع وذاك خرائب قصور ومبان متداعية بلا أسقف في اتجاه الشمال. ورغم أنها كلها كانت من الطين، إلاّ أنّ احتلالها لمساحة شاسعة ينبئ عن مجتمع مزدهر عاش في أيّام خلت بين جدرانها. كما كان وجود هوة عميقة هنا أو هناك يوضح مواقع الآبار التي دُفنت عبر الزمن والتي كان يحيط بها حائط إسمنتي. ولم نَرَ من خلف هذا في الناحية الشرقية سوى الرمال المتموجة حتى أعلى منخفص صبحاء، حيث تلتقي مياه المجاري الثلاثة لتكوّن سيلاً له القدرة -كما يصوّره الخيال المحلّي - على اختراق حواجز رمال الدهناء نحو البحر.

مهما كان سبب تهدّم اليمامة، فإنّ الخراب والاضطرابات التي حدثت في سنوات أكثر حداثة قد طمست ذكرى تلك الأحداث القديمة. ولا يحفظ أخبار الأحداث التي يهمل المؤرخون روايتها سوى الأساطير. ويبدو جلياً أن العاصمة القديمة لم تكن ضحيّة للوباء والجراد، وتتهاوى أيضاً نظرية الجفاف عندما نستحضر أنّنا نتحدث عن قلب نظام التصريف في وسط الجزيرة العربية، ولا يبقى هناك إذن غير افتراض السيل العظيم ليبرر الأزمة التي حلّت بالمدينة العظيمة. ولعل التمحيص والتدقيق في هذا الافتراض يوضّح أنّ هذا التفسير ليس معقولاً فحسب، بل يتعذّر عدم الأخذ به. البقايا الناجية من المستوطنات تقع بعيداً عن وادي حنيفة، على جانبي وادي نساح، أما الخرائب فهي تقع على جوانب وادي

حنيفة، وعلى هذه الأرضيّة من الحقائق رَجّحتُ نظرية حلول كارثة مباغتة أحالت عمارها خراباً. إن السيول القادرة على إحداث آثار كهذه نادرة الحدوث في الجزيرة العربيّة، ومن المستبعد أن تحدث ـ إن حدثت ـ في ذات الوقت في مجريين يعتمدان على مصادر تفصل بينها مساحات شاسعة. أليس من المقبول إذن أن نفترض أنّ سيلاً طاغياً في وادي حنيفة هو الذي تسبّب، ليس فقط في خراب المستوطنات الموجودة في أعلى مساره. ولكن أيضاً في خراب اليمامة؟ لقد حدث هذا للحدِّ الذي أبعدت فيها أجزاء من خرائب اليمامة عن مواقعها الأصلية، كدليلٍ إيجابي على أنّ مثل هذا السيل حقيقة تاريخية.

تابعنا سيرنا من الركن الشمالي الغربي للمستوطنة بطول حدودها الشمالية عبر الرمال المتراكمة التي كنا نلاحظ في وسطها مجموعات صغيرة متفرقة من القبور، وبالقرب من أحد شواهد القبور رأينا ساق نبات غضّ، لاشك أنه تعبير عن احترام والد أو زوجة سلبها الموت من تحب، ولّما يطوِ ذكرها النسيان. قادنا الطريق من هذا الموقع من خلال فرجة من سياج الشجيرات الخارجي إلى منطقة خالية من الزراعة تقع بها إحدى القرى الصغيرة الأربع التي تكون الواحة، وبعد ذاك التفَّت القرى الثلاث الأخريات حولها في شكل نصف دائرة في ظلال النخيل. مرَّ طريقنا خلال القرى بالتتابع حتى بلغنا آخرها، وهي ليست بعيدة عن الطرف الغربي للواحة، ويسكنها فقط الأمير وأقرباؤه. أنخنا مطايانا هنا لتحية الأمير ابن فوّاز الذي بعث بابنه لاستقبالنا واستضافتنا راجياً قبول عذره إذ حبسه المرض عن مباشرة ذلك بنفسه. كان الجوع والنصب قد أخذا منَّا مأخذيهما، فقدّرنا ما قُدِّم لنا حقّ قدره ولم نتوانَ في ازدراد الطعام المبسَّط الوفير الذي وضع بين أيدينا ونحن نُبدي

بعض الاحتجاج الفاتر على كثرة ما أتوا به من التمر الممتاز ولبن الأبقار الدسم المخثّر وما يرافق ذلك عادة من القهوة والبخور.

كانت كل الأبقار في الجوار تبدو لي هزيلة ومعاقة النمو، بسبب فقر المراعي حول المستوطنات. ولا يقتصر دور الأبقار على إمداد الأهالي باللبن فحسب، ولكنها تقوم بدورها مع الحمير والإبل في أعمال القرويين العادية، ولقد لاحظت مجموعة مختلطة من الأبقار والحمير تقوم بدوس الحبوب في بداية الواحة، بينما كانت مجموعة أخرى تسحب الماء من الآبار التي يبلغ عمقها هنا أربع أو خمس قامات، والتي تعتمد عليها المستوطنة بالكامل، إذ ليست هناك مصادر أخرى للرّي. إن بساتين نخيل اليمامة أكثر كثافة وهي خير من بساتين السلمية، كما تُزرع فيها عينات أكثر تنوعاً من محاصيل مساعدة وفيرة مثل القطن والعصفر والباذنجان والبقوليات والتين والرمّان، مع وجود عنب هنا وهناك ورقاع متفرقة للحبوب، وتوجد هذه المحاصيل في الحدود الخارجية للواحة. ثم لاحظنا هنا وفي مواقع أخرى من الخرج أنّ مراحل عمليات حصاد الحبوب (الشعير والقمح) متقدّمة أكثر مما هي عليه في الرياض، حيث إن كل المحاصيل كانت في هذا الوقت قد جمعت في مواقع الدوس، بينما كانوا في مرحلة قطع المحصول في الرياض.

كانت كلّ قرية من قرى اليمامة الصغيرة الأربع مسوّرة، وكان تعداد السكان بها جميعاً، إضافة للبيوت الريفية الكثيرة المتناثرة في بساتين النخيل يبلغ حوالي ٢٠٠٠ نسمة، يأتي معظمهم من ثلاثة مصادر قبلية: قسم زعب من قبيلة آل مرة. التي ينتمي إليها الأمير؛ وقسم آل عائذ من قبيلة قحطان، وهم أقرباء سكان السلمية، وأخيراً بني هاجر. إضافةً للأرض التي أقاموا عليها مساكنهم، فإن

سكان هذه المستوطنة يمتلكون ويزرعون أراضي الحبوب القصيّة في الهياثم والمنيصف التي تقع على بعد أميال قليلة نحو الجنوب، في وادي نساح.

خرجنا من الواحة من طرفها الغربي، بالقرب من قرية الأمير الصغيرة، ثمّ غيّرنا اتجاهنا لغرب الجنوب الغربي نحو قلعة القرْين التي تبعد ثلاثة أميال عنها.

وبعد أن عبرنا مهد نساح بقليل. وهو الشعيب الذي يجري منحدراً بطول الحافة الجنوبية لليمامة ليصل إلى صبحه، بلغنا خرائب قلعة حراسة قديمة - تتوسط حقولاً مهجورة - وتسمّى مفتول السيح. ووجدنا أيضاً مزارع خربة على بعد نصف ميل في الحدود الشمالية لمزارع فسيحة من البرسيم تسمى القرْين، على اسم القلعة المذكورة، ولكنها تُعرف أكثر باسم السيح، على اسم الوادي الذي يسقيها والذي لا تجف مياهه طوال العام.

تنحدر مرتفعات القصيْعة من ناحية الشرق بلطف إلى الأسفل نحو الحقول، وتقع القلعة في حدودها الخارجية بالقرب من الجانب الأيمن لوادي السيح، على بعد ميلٍ ونصف الميل من النهاية السفلى للوادي، وهناك نصبنا خيامنا.

كانت مستوطنات الهياثم والمنيْصف تقعان ناحية الغرب، ومن خلفهما سلسلة تلال فرزان؛ أمّا ناحية الجنوب، على بعد حوالي ثلاثة أميال، فتقع مصادر وادي السيح. وهي مجموعة من ثلاثة مستودعات مياه طبيعية تغذيها العيون، وتعد المعلم البارز لإقليم الخرج، والمعلم الذي تدين له ليس فقط بازدهارها الذي تمتّعت به في الماضي وما زالت تنعم بخيراته، ولكن أيضاً - وفقاً لاقتناعي - تدين له باسمها.

لا تفصل مسافات كبيرة بين المستودعات المائية الثلاثة، وفي جوارها تنبعج مرتفعات القصيعة إلى الخارج قليلاً في اتجاه الغرب وترتفع بحدّة من السهل إلى تلٍّ يعلوها بمئات الأقدام. أول هذه المستودعات المائية هو عين سمحة، وهو يبعد قليلاً عن سفح المنحدر، ويتكوّن من صدعٍ عميق في صخور الحجارة الجيرية، وهو بيضوي الشكل وأبعاده ثماني خطوات في أربعين خطوة. والسطح الأعلى لمياه البركة الصافية حوالي عشرين قدماً تحت سطح الأرض وتنحدر الصخور من كل جوانب البركة الداخلية لتبلغ حدود الماء.

وهناك في الركن الشمالي الغربي فتحة ضيّقة لا بُدَّ أن الإنسان هو الذي نحتها، وهي المخرج الوحيد لمياه البركة، وتصبُّ في مجرى السيح. أما البركة الثانية فهي عين الضلع، وهي مختلفة إذ أنها تقع في صدع في جانب التل نفسه وهي أكبر من سابقتها وشكلها أقل انتظاماً، وترتبط بقمة المرتفعات بمسيل صخري شديد الانحدار وشبيه بالمدخنة. وطول البركة في المتوسط مئة ياردة وعرضها سبعون ياردة، وشكلها العام دائري تقريبًا، وجوانبها المكوّنة من الصخور الجيرية يتباين ارتفاعها عن سطح الماء تبايناً عظيماً، إذ يبلغ أعلاها أربعين قدماً في الجانبين الجنوبي والشرقي، بينما لا يتعدّى في الجانب الشمالي ثلاثين قدماً. أما في الجانب الغربي فإن الانحدار نحو الماء يتدرّج بلطف.

والمستودع المائي الثالث هو عين أم خيسة، ويبعد أكثر من نصف ميل إلى الجنوب الغربي من حافة المرتفعات، ومنسوب المياه بها لا يبعد سوى قدم أو قدمين تحت مستوى سطح الأرض، وعلى عكس الصخور الشاهقة التي تحيط بالمستودعين الآخرين فإن الأرض هنا تنحدر بلطفٍ نحو حافة الماء، كما تحفّ بها في امتنان

الشجيرات والقصب والأعشاب. وتغطي هذه البركة مساحة تفوق البركتين الأخريين، حيث إن متوسط طولها ١٥٠ خطوة، ومتوسط عرضها ٨٠ خطوة.

تلفُّ المياه القاتمة بهذه البرك الرائقة -التي يقال إن الإنسان لم يسبر غورها- عتمة مظلمة، وهي تتوسط تلك القفار. وهناك اعتقاد عام يؤمن به العرب الذين يدفعهم الفضول لتحسس المخفيّ من أسرارهم، بأنّ هذه البرك لا قاع لها، وأنّها تنحدر دون عائق نحو البحار المدفونة في باطن الأرض. ولأنني لم أكن أملك من الوسائل ما أستطيع بها أن أتحقق من صدق زعمهم، أو أن أؤكد أنه لا أساس له من الصِّحَّة، فإنني قنعت بمجاراتهم ومشاركتهم قناعاتهم، وكنت أعجب للشفافية المعدنية للمياه وأنا أشاهد رفاقي يقفزون- إذ يستطيع كل العرب فعل ذلك - إلى أعماقها مرحاً ولهواً، وكنت أعجب أكثر وأنا أشاهد هبوط الأحجار الجلمودية العظيمة تُرمى داخل البرك فتهوى طاردة فقاقيع الهواء حتى تختفي عن الأنظار في أعماق بعيدة. كل ما يُمكن قولُه بيقين هو أنّ هذه المستودعات المائية العظيمة تستمدّ وجودها من ينابيع مخفية في باطن الأرض، وأنها لأجيال متعاقبة لعلها منذ بدء الخليقة استُخدمت لريّ حقول الخرج التي كان نماؤها الزراعي العظيم في أزمان سحيقة قد أفرز الفكرة الخاطئة الشهيرة التي تقول إنّ اسمها قد اشتُقَّ في تلك الأيام التي كانت فيه الخرج المصدر الرئيس (المخرج) للحبوب التي تحتاجها مكة والأراضي المقدسة.

نحن نعلم على وجه اليقين من القرآن ومن مصادر أخرى أنّ الحاجة الماسة للغذاء والتي نشأت نسبة لتزايد السكان في مكة قد أوجبت في أيّام ما قبل الإسلام تسيير رحلات قوافل منتظمة للمواقع التجارية الكبرى في الجزيرة العربية، وأنّ

النبي نفسه شارك بحيوية في عدد من المعاملات التجارية لعشيرته في اتجاه الشام، ونعلم كذلك بوجود معاملات نشطة بين مكة واليمن، ولكن لم يصلنا دليل لتأكيد النظرية التي تقول إن إقليم الخرج، أو حتى مملكة اليمامة كان لها على الإطلاق ما يؤهلها للمساهمة بفعالية في إطعام قلب الجزيرة العربية في عهدها الوثني[1]. لهذا؛ ومن منطلق المساحة المحدودة لأراضي إقليم الخرج، يمكنني أن أمتنع عن قبول التفسير الذي يشاع عن مصدر اسم الخرج والذي استهوى سكان المنطقة إذ يُرضي نزعة الفخر لديهم؛ وأقدّم عوضاً عن ذلك التخريج، تفسيراً آخر فرض نفسه عليّ بقوّة لا تقاوم عندما اطّلعت لأول مرة على حفر الماء العظيمة التي فرغت لتوّي من وصفها.

لقد نوّهت من قبل أن تسمية العرب للأماكن وغيرها ترتبط بالمعالم الطبيعية ذات الصلة بمصادر المياه في بلادهم الصحراوية، وسأبيّن في فرصة لاحقة أن مقاطعة الأفلاج وإقليم السر قد استمدّا اسميهما من أشياء بديعة كتلك التي نُسِبَ إليها اسم الخرج. لن يكون شاذاً أو مستغرباً -والحال هذه - إن استمدّ إقليم الخرج اسمه من هذه البرك المتميزة الرائعة، ولكن الصعوبة تنجم عند محاولة التوفيق بين الاسم - كما هو - وبين اسم الظاهرة الطبيعية التي اسْتُمِدَّ منها.

بيد أنّ المهمة ليست فيما يبدو بالغة الصعوبة إن تذكرنا ابتداءً: أنّ عيون الخرج تقع في صدوع عميقة بين الصخور، وبوضعها هذا لا يعجزها إلهاب خيال الناس

(١) الواقع أن جهل المؤلف بأهمية منطقة الخرج في مجال الزراعة في العصر الجاهلي، والإسلامي لا ينفي دورها في إمداد مكة المكرمة وغيرها بالمؤن الزراعية الأساسية، وقصة ثمامة بن أثال -وهو من سادة اليمامة، قاعدة الخرج- في منع الحنطة عن قريش مشهورة ومعروفة في كتب التاريخ والسيرة. (المراجعون).

للتفكير فيها. ثانيًا: هناك عيون في كثير من المواقع الأخرى بالجزيرة العربية - وهي كهذه العيون - توجد في صدوع صخرية، رغم أنها في حقيقة الأمر ذات طبيعة مختلفة؛ ويُعزي خيال العامة وجودها لسقوط النجوم، ولذا يسمونها خفس (أو صدع). ثالثًا: إنّ الصوت (ق) في نطق العرب المعاصرين قد يستعاض عنه بالصوت (ج)، مثلاً كنطق الاسم جاسم بدلاً عن قاسم. وأخيراً هناك الكلمة (خرق) وهي مرادفة لكلمة (خفس)، وكلاهما بمعنى صدع أو شق، واستُخدم تصريف هذا الاسم للجبل الكهفي البديع الموجود بأطراف الرياض، إذ يسمّى (أبو مخروق).

لقد فقد العرب منذ زمان الحس باللغة والبلاغة والفصاحة التي ميزّت أسلافهم في عهد الجاهلية[1]، لذلك لا تحقّ لنا الدهشة الآن إن تقبّلوا دون اعتراض تخريجاً يصعب الدفاع عنه لاسم إقليم الخرج في حين أنّ في الجوار تعليلاً معقولاً لا يضلّ الطريق إليه من يبحث عنه. لقد أحدث الزمن تغيّرات كثيرة في نطق اللغة العربية القديمة، وتسبّب انحطاط العلم - الذي فشلت نزعة التجديد السلفية الحديثة في وقفه[2] - في أن يتابع القلمُ اللسان، وكان هذا التحوّل اللغوي الذي يراه الطالب التقليدي باعثًا على الأسى، شيئاً جديراً بالاهتمام في نظر الباحث

(١) يبالغ المؤلف هنا في محاولة فرض استنتاجه من خلال الاتهام بأن العرب فقدوا بلاغتهم اللغوية وهذا غير صحيح، وليس ما توصل إليه عن طريق الافتراض سبباً كافياً لتأييد ما ذهب إليه المؤلف لتفسير أصل اسم الخرج. (المراجعون).

(٢) الواقع أن الدعوة السلفية التي خرجت من نجد كانت من أكبر أسباب نهوض الحركة العلمية والأدبية في تاريخ الجزيرة العربية الحديث، ويبدو أن المؤلف لم يتح له فرصة دراسة حجم تأثير هذه الدعوة المباركة بطريقة مناسبة. (المراجعون).

الذي يدرس تطوُّر اللغات، إنني لا أجد اعتراضاً عملياً، كما لا أرى اعتراضاً ناشئًا عن مخالفة علم أصول الكلمات للنظرية التي تشتقّ اسم الخرج من الخرق الذي يعني الشق أو الصدع، ولذلك فإنّ الإقليم يستمدُّ اسمه من العيون التي تشكّل الآن - كما كانت على الدوام - معلماً أخّاذاً. تتطلب النظرية تحويراً في الإملاء - إن كان هناك من يبحث عن الدقة التقليدية - ولكنها لا تتطلّب تحويراً للنطق، وهي تتفق ليس فقط مع كل معيار عملي، لكنها أيضاً تستند إلى تأييد قوي من التماثل في اشتقاق أسماء أقاليم مثل السر والأفلاج.

توقفت اثنتان من العيون الثلاث عن العطاء، أو ماتتا كما يقول العرب. نضبت الينابيع التي كانت تغذّي العينين الأكبر، أو لعل مياهها وجدت مخرجاً خفيّاً، وكانت النتيجة أنّ مناسيب الماء في هذه العيون قد انخفض عن مستوى القنوات الجانبية التي كان الماء يمرّ عبرها إلى الخارج؛ بينما بقيت عين سمحة بمفردها تؤدي مُهمَّتها التي كانت تعينها عليها رفيقاتها. يصدر وادي السيح -كما أسلفت - من الركن الشمالي الغربي لهذه العين، على عمق حوالي عشرين قدماً تحت سطح الأرض، ثمّ يجري من هناك في اتجاه الشمال ساقياً في طريقه المزارع على أرض تمتدُّ لأربعة أو خمسة أميال.

كانت هذه العين فيما مضى من زمان مع عين الضلع وعين أم خيسة تغذى بواسطة قنوات ري من نوع الخرز، وهي ما زالت موجودة حتى الآن ولكنها خربة. نُحتت كل هذه المجاري في الصخور الجيرية بالأرض المرتفعة التي يبدأ فيها السيح مسيرته على سطح الأرض، ليتبع بعد ذلك الانحدار الطبيعي للأرض نحو منخفض وادي نساح.

لا بدّ أنّ الرّي من هذه الينابيع أو «عيون الخرج» كما تُسمّى هذه البرك مجتمعة كان متبعاً بهذا الإقليم منذ زمان، ويبدو أنّ نظام قنوات الري التي بقيت صالحة حتى أيّامنا هذه كانت - كما هو الحال مع فرزان- من صنع الإنسان في مستعمرة فارسية حديثة نسبياً [1]. كما أنّ استخدام الخرز هنا، هو دليل قوي على ذلك. وجدنا هنا أيضاً شبيهاً للخرائب الدائرية التي وصفناها سابقاً؛ وعند ارتقائنا للمنحدرات التي تقود إلى المرتفعات المجاورة لعين الضلع، سرَّني أن أجد أكواماً من الأنقاض منتشرة على القمة وهي تشابه ركام الحجارة التي تنصب كمعالم. ورغم أنّها كانت لا تثير القدر نفسه من الاهتمام مقارنةً ببقايا المباني الواضحة المعالم في فرزان، إلاّ أنّها كانت منتظمة بطريقة متماثلة كما يُتوقَع أن توجد في مستوطنة لأناس متحضّرين أو في المدافن الخاصة بهم، أو في شيء مثل ذلك. وكان وجودها في أرض مرتفعة يؤكد بوضوح أنها لم تكن ذات أصل عربي [2].

كانت بقية الدوائر تبدو موحّدة المساحات ولا يزيد قطرها على عشر ياردات في كلّ الحالات، واشتملت على أكوامٍ تختلف ارتفاعاتها بين ثلاثة وخمسة أقدام، ولم تكن من الصخر كما في فرزان، ولكن من قطع صغيرة من الحجارة الجيرية الكلسيّة التي يتكوَّن منها الجبل نفسه ومن ملاط الجبس. كانت هناك أيضاً رقعةٌ من المباني المهدّمة إلى الغرب من عين أم خيسة مباشرة على السهل المسطّح، ولكن

(١) يصرّ المؤلف هنا على وجود التأثير الفارسي في منطقة جنوبي نجد من خلال وجود نظام الخرز وهو نظام إسلامي لجلب مياه الشرب وهو موجود في أكثر المناطق. ولا يدل على التأثير الفارسي كما أشار المؤلف. (المراجعون).

(٢) يكرر المؤلف هنا استنتاجه الخاطئ متجاهلاً وجود العديد من المدن والبلدان في المنطقة في أرض مرتفعة وأصلها عربي. (المراجعون).

هذه كانت من الطين والجبس، وقد تكون بقايا مستوطنة عربية عادية تعود لأزمان حديثة.

تمتد الأرض الزراعية التي تعتمد على الرَّي من وادي السيح لمسافة أربعة أميال من الجنوب للشمال، ويبلغ عرضها في المتوسط حوالي ميل واحد. وهي تشكل جزءاً من الممتلكات الخاصة بابن سعود الذي نذرها كلها لخدمة الإسطبلات الملكية التي أنشأها هنا لحفظ ورعاية وحماية صغار المهور وفحول الجياد، والجياد الأخرى التي لا يكون هناك احتياج لها في الوقت المعني لاستخدامه أو استخدام أفراد أسرته، في حالتي السلام والحرب.

قلعة أو «قصر» القريْن هو مبنى مستطيل من الطين أبعاده ١٥٠ ياردة في ١٠٠ ياردة، ويحيط به حائط مرتفع تقوم عليه بعد فواصل عدد من الأبراج على كل جانب، وله بوَّابَة ناتئة هائلة في الجانب الغربي. يُقسّم حائطٌ الجزء الداخلي إلى قسمين: القسم الجنوبي وهو الذي تقود إليه البوابة الرئيسة ومساحته ١٠٠ في ٥٠ ياردة، ويحتوي على غرف المخازن اللازمة ومسكن المشرف على «القصر» وأسرته، وسائسي الخيل الذين يعملون تحت إمرته.

أمّا القسم الثاني الذي تقود إليه فرجة في الحائط الداخلي الذي يفصل الدار إلى قسمين، فهو مربع كبير يحتلّ بقية القلعة، وينقسم بدوره إلى إسطبلين مكشوفين لترويض الخيول، يفصل بينهما طريق تحيط به على الجانبين أسوارٌ طينية خفيفة. وتوجد في الطرف الشمالي بئر عمقها أربع قامات، وبجوارها حوض ترابي مسطح كبير لتشرب منه الحيوانات، كما كان كلٌّ واحد من الإسطبلات مزوداً بصفوف من معالف الدواب الدائرية الطينية، والتي كان يُكوَّم فيها لارتفاعٍ عالٍ،

البرسيم - الذي يُؤتى به من المزارع- مرتين كل يوم، وكانت الخيول تطعم فيها وهي مقيّدة بحبال طويلة، وكانت تمتدّ بجوار الحائط سقيفة [تعريشة] مهلهلة تُحفظ فيها الحيوانات للوقاية من الشمس في ساعات النهار القائظ.

وفي وقت زيارتي كان هناك حوالي خمسين رأس من الحيوانات في المبنى: خمسة أو ستة من الفحول الجيّدة وحوالي اثني عشر من المهور الصغيرة الواعدة، وكانت البقية أفراس من نوعيات مختلفة، واثنين من الإبل وبغل واحد. لم أرَ الحيوانات تتلقّى أيّ نوع من النظافة أو الرعاية، ولا تخضع للتمرين أو التدريب على الإطلاق، ولا يسمح لها تحت أيّ ظرف بمغادرة المبنى. كانت الإسطبلات تنظّف من البقايا بعد فواصل زمنية بعيدة، والحيوانات المتسخة البائسة المنتقاة من خير خيول نجد تقف أمام المسؤولين عن رعايتها في أكوامٍ متعاظمة من الأوساخ والروث، وهي تطعم ذلك العلف الغني.

ولكنها رغم كلّ ذلك لم تكن تعاني بالقدر الذي يُتوقع أن يفرزه العيش في ظلّ هذه الظروف الاستثنائية والمعاملة السيئة. وعند ذهاب الخيول لساحات الوغى تكون جلودها لامعة وطاقتها جيدة لتحمّلِ العنت والحرمان. ولكن كان هناك داء متفش بكثرة بينها، وهو داء غريب يغيّر الشكل الخارجي كثيراً، ولكن باستثناء هذا، يبدو عديم التأثير، ويسمّونه دباس، ويُعزى للإصابة بطفيلي يأتي مع البرسيم.

ويقولون إن هذا الداء ينحصر في الخيول ذات اللون الأبيض فقط، وبعد أن تفحصت الحيوانات الموجودة في القلعة يمكنني أن أشهد على صحّة هذا القول، إذ بدت على الخيول البيضاء والرمادية كتلٌ بشعة من البقع المتقرِّحة، وهي أعراض

المرض، بينما كانت بقية الحيوانات من جميع الألون الأخرى محصنةً تماماً ضد المرض، باستثناء تلك التي تشوب لونها نقاط أو خطوط بيضاء، أو حتى شعيرات بيضاء، وهذه الخيول يكون تأثرها فقط في المواضع التي توجد فيها هذه الأجزاء البيضاء.

لم أحصل على تعليل من المشرف على الإسطبلات ولا من العرب المرافقين لي عن سبب العداء السافر الذي لا هوادة فيه لهذا الداء ضد اللون الأبيض، وعجزه التام عن التأثير في كلّ درجات الألوان الأخرى، لكنّهم كانوا واثقين من المعلومات التي أكدّوها من أنه لا تترتَّب على هذه العِلّة آثار مرضية دائمة باستثناء التأثير على النظر، إن أُصيبت هذه الحيوانات بجوار العينين. ولا أدري إن كان الاختصاصيون البيطريون على علمٍ بآثار المرض أم لا، أو إن كانوا يعرفونه باسم آخر. ولكنني بعد انقضاء بعض الشهور ذكرت الأمر في بغداد لداؤد بك داغستاني، وهو مُرَبٍّ متحمس للخيول ومحبٌّ عظيم لها، وعلمت منه أنه يعرف المرض، ولكنّه أعطاه اسماً آخر نسيتُهُ لسوء الحظ.

البرسيم هو المحصول الوحيد الذي يُزرع في حقول القرْين، ويكوّن الغذاء الرئيس، أو لعلّه الغذاء الوحيد لحيوانات الإسطبلات التي تتمتّع في حالات نادرة بوجبة من الشعير. تدلّل المهور الصغيرة الواعدة كثيراً في مرحلة نموها، ولقد رأيت بعض المهور (عمر عام) تحوَّل لأكل الشعير بعد أن تتم تربيتها في السنة الأولى من أعمارها على لبن النوق والتمر، وهذا هو النظام المتّبع في إسطبلات عبدالله بن جلوي في الهفوف. ويأتي العشب الصحراوي الرطب النصي في المرتبة الثانية في تغذية الجياد في الجزيرة العربية تالياً للبرسيم.

الخرج الجنوبي:

فارقنا عين أم خيسة صباح يوم ٩ مايو (أيار) متجهين نحو الغرب فوق صقع موحش من التربة الرخوة المشبعة بالأملاح، والذي يفصل بقايا حطام ما كان يوماً في الماضي اليمامة المتألقة عن مجموعة من المستوطنات الحديثة المزدهرة التي أعيد إعمارها بدرجة معقولة بفضل إصرار أهلها، رغماً من الظروف غير المناسبة والمعاناة التي لم تنقطع أثناء العقود الأخيرة من القرن الماضي، فعاد لها بعض مما اشتُهرت وتميّزَت به بين أقاليم الجزيرة العربية في الماضي من النشاط الزراعي والتجاري.

ويعوق مجرى وادي السيح الرملي الضيّق الذي يشق هذا السهل العاري، سيلُ العقيمي العظيم في محاولاته المتقطعة لبلوغ مخرجه الطبيعي في شعيب صبحا. وبعد ميلٍ أو نحوه بلغنا المستوطنة الأولى، وهي الأكثر حداثةً من مستوطنات الخرج العصرية. هنا وعلى أنقاض موقع لقريةٍ صغيرةٍ خربةٍ من عهود حديثة، وفي وسط حقول الحبوب الممتدة التي تتخللها رقاع من أشجار الأثل جيدة النمو، تقف قرية الضبيعة وهي من أحدث المستوطنات الكثيرة التي أنشأها ابن سعود في بلاده لدعم حركة الإخوان. في الوقت الذي قمنا فيه بالزيارة لم يكن قد مضى عام منذ أن وصلت طلائع من فخذ بني عامر لقبيلة سبيع، بعد أن خصص لهم ابن سعود هذا الموقع لبناء هجرتهم، ووضعوا الأساس للمسجد العظيم الذي كانت تزين واجهته سبعة عشر من الأقواس المسننة التي اشتهرت بها العمارة الإسلامية السلفية، كانت هذه الواجهة الأنيقة تغاير بصورة صارخة مجموعة مبانٍ طينيةٍ مربعة بائسةٍ يبلغُ عددها حوالي مئة وتحيط بالمسجد في غير نظام أو تماثل. وقد خصصت لسكن

أهل الهجرة. تكفلت الدولة كالعادة بإنشاء المسجد الذي تدلُّ ضخامته على أنَّه قد صُمِّم ليخدم مجموعة أكبر ممن يسكنون هذه القرية في الوقت الراهن. كانت القرية في مرحلة الجنين، ولا بد أن ابن سعود كان يتوقع نمواً سريعاً لسُكَّانها إذ أخبرني بأنه يتوقع أن يكون من بين سكانها خمس مئة من الرجال الأقوياء في عمر التجنيد العسكري، وأخبرني أنّه وزّع عليهم ٣٠٠ بندقية لاستخدامهم كمجموعة. أمّا زعماء القرية فهم مبارك بن دليم وفارس بن رقاص وغنيم بن هُدَيْهِد، وجميعهم من فخذ بني عامر الذين أشرتُ سابقاً [1] لطردهم من جوار الخُرمة في غرب نجد على يد بني ثور. ولا يتعدّى تعداد سكان الضبيعة الآن في تقديري، ٥٠٠ نسمة، ولكن قد يكون هناك نحواً من ١٥٠٠ آخرين ينتظرون ورود الفرصة السانحة للاستقرار هنا بعد أن يُفرغَ من تخصيص الأراضي الزراعية لهم، وبناء المزيد من المساكن حتى يضمنوا السكن ومصدر الرزق، أمّا في هذه الأثناء فهم يتجولون مع قطعانهم في المراعى. ولا يوجد نخيل بالهجرة حتى الآن، بيد أنني مررت برقاع كثيرة مخضرّة زُرعت بشجيرات الرمان والقطن والعصفر والبصل وما إليها، ويبدو أن محصول الشعير كان وفيراً استناداً على ما رأيت من الجذامة المتبقية في الأرض بعد حصاده. ويبدو أن الماء كان وفيراً في الهجرة، كما توفِّر رقاع أشجار الأثل ما يكفي من أخشاب لأغراض البناء.

تقع قرية وواحة نعجان على بعد حوالي نصف ميل جنوب الضبيعة ويفصلها عنها وادي العين، وهو مجرى سيول ضيق ينزل من منحدرات طويق المجاورة ويمرّ عبر أجمة من أثل تسمّى روضة غُريفة على بعد ثلاثة أميال إلى ناحية الغرب.

(١) راجع الجزء الأول، ص٢٦٥ . (المؤلف).

وقد أشاروا لي قبل ذلك إلى موقع خرب صغير إلى اليسار كانت تحتلّه قرية نعجان فيما مضى، ولكن أدهشني في الهجرة الحالية رغم صغرها الرخاء والازدهار اللذان يبدوان عليها. بيد أنها متناهية الصغر ومستطيلة الشكل لا يتعدى طولها وعرضها ١٢٠ و ٧٠ خطوة، على التوالي، ويحيط بها سور طيني عالٍ وسميك وبه مدخل واحد في الجانب الغربي. وتقع القرية في رقعة تمت إزالة أشجارها وسط إحدى مجموعتي النخيل التي تكون الواحة، ويبلغ تعداد سكانها حوالي ٣٠٠ نسمة.

عندما قام عبدالعزيز بن رشيد في عام ١٩٠٣ أو ١٩٠٤م بمحاولته الفاشلة لضمِّ الخرج تحت جناحيْه[١]، حلّ دون إنذار بقرية نعجان هذه وتغلّب على العدد القليل من الرجال المدافعين عنها، وعسكر وسط بساتين النخيل الكثيفة بالواحة استعداداً لمهاجمة الدلم، عاصمة الإقليم التي تقع على بعد حوالي أربعة أميال نحو الجنوب، وفي الغد بعد أن قنط رجال القرية من التصدّي للاعتداء تمكنوا من إبلاغ الرياض بما حدث من ابن رشيد وعن نواياه بمهاجمة الدلم. حينها قام ابن سعود دون أدنى تأخير بإعداد قوّة حُشدت على عجل وتحرك قاصداً الدلم[٢]، والتف بعيداً عن مخيّم عدوّه الذي لم يكن يعلم بتحركاته ليصل إلى غايته ويكمن بجنوده بطول حدودها قبل بزوغ الفجر. وقد أخبرني إبراهيم الذي كان حينها في خدمة ابن رشيد ومن ضمن القوة المهاجمة، كيف أنّ قوات شمّر الواثقة من النصر

---

(١) يقصد المؤلف معركة الدلم في عام ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) وليس في عام ١٩٠٣م، أو ١٩٠٤م. (المراجعون).

(٢) ما ذكره المؤلف هنا من تسلسل الأحداث غير دقيق فالملك عبدالعزيز كان موجوداً بمنطقة الخرج قبل وصول ابن رشيد إليها. (المراجعون).

تقدّمت مع تباشير الفجر عبر حقول المحمدي المكشوفة التي كانت تفصلهم عن هدفهم، وكيف أنّهم كانوا يهنئون أنفسهم على السرعة والسِّرّية التي أنجز بها زعيمهم الحملة وعندما صاروا على بعد ياردات من حافة بساتين النخيل التي كانت تبدو في الظاهر دون حراسة، تعرَّضوا لوابل إثر آخر من نيران البنادق القاتلة التي لم تكن متوقعة. وولّى الجيش المغير الأدبار دون إخضاع الأمر للتفكير، مخلّفين وراءهم في الحقل عدداً كبيراً من القتلى، بينما جمع ابن سعود قوة كبيرة من المحاربين المحليين الذين أخرجهم من مخابئهم ظهوره المسرحي المفاجئ ونصره الساحق، وتعقبوا فلول الجيش المندحر الذي ترك وراءه كل المؤن والثقيل من المتاع بحثاً عن النجاة عبر وادي السلي حتى بلغوا حدود بلادهم. وهكذا تم إنقاذ الخرج، ولم يضعه ابن رشيد بعد ذلك مطلقاً في دائرة اهتمامه.

تتكوّن الدلم عاصمة إقليم الخرج الحالية، إضافة للمدينة التي تحمل ذلك الاسم من أراضٍ زراعية شاسعة وتقع في قسمين: واحة الدلم نفسها، وأراضي المحمدي التي يزرعون بها الحبوب، والأخيرة تقع بين واحة الدلم وبين نعجان وتربتها طفلية خصيبة، ومساحتها شاسعة تبلغ وفقاً لتقديري ٢٥٠٠ فدان، وتتخللها البيوت الريفية «القصور» والآبار وهي مخصصة لزراعة القمح والشعير باستثناء عدد قليل من بساتين النخيل في الطرف المجاور للواحة. وكانت المحاصيل قد حصدت قبل بلوغنا هذا المكان، ولكن مواقع الدوس المبعثرة التي تحفّ بها أكوام الحبوب العالية والتبن كانت تحمل الدليل على وفرة الحصيد. كان سكان الدلم هم ملاك معظم هذه الأرض، وكانت «القصور» وعددها حوالي مئة تضم عدداً من الخدم والعمال وأسرهم، وقد يبلغ تعدادهم ١٠٠٠ نسمة قد يزيد أو ينقص. ويبلغ عمق الماء في آبار المنطقة ست أو سبع قامات، ويفصل حافتها

الشمالية عن نعجان شريطٌ رملي ضيِّق، بينما كانت تحدّها من جهة الشرق مرتفعات القصيعة على بعد ميل، ومن ناحية الغرب جبال صخرية ناتئة تسمّى أبا ولد، وخشم الكلب، وتشكل حدودها الجنوبية الحافة الشمالية للواحة، وهي كتلة متراصة من بساتين النخيل تفصل بينها على مسافات متقاربة رقاعُ مكشوفة من حقول الحبوب والخضراوات، وتمتدّ حوالي ميلين من الشمال للجنوب، وحوالي ميل واحد بالعرض، وتستمدّ خصوبتها العظيمة من موقعها إذ تلتقي في جوارها عدد من الأودية التي تنزل من منحدرات طويق لتقترن مع شعيبي السوط القادم من الحوطة والعقيمي الذي يعوق مساره هنا كثبان عرق الضاحي الرملية العالية التي تعترضه - مخفيةً وراءها الوجه الخارجي من مرتفعات القصيعة - لتصل إلى الطرف الشرقي للنخيل. وأثناء سيرنا عبر قلب الواحة تعذَّر عليّ أن أفك سرّ شبكة مجاري مياه الرّي المعقدة لأعرف الأجزاء المكوّنة لها، ولكن يكفي لفهم نظام التصريف في المنطقة أن نعلم أن العقيمي يتلقى آخر دفعة له في الدلم قبل أن يختفي في صبحا. وتستخدم الإبل في الغالب لسحب المياه من آبار الدلم التي يبلغ عمقها ست أو سبع قامات، كما هو الحال مع آبار المحمدي، واستخدام الإبل لسحب الماء دلالة واضحة وملموسة لثراء المدينة الذي تؤكده - دون مدعاة للشك- الكثافة العظيمة للبساتين ووفرة ما يزرعونه من المحاصيل المساعدة التي يجدون لها سوقاً رائجة في المدينة. وتكثر هنا زراعة القطن رغم أنّه ما زال يُزرع في الحدود الفاصلة بين البساتين والمزارع، كما توجد خضراوات متنوعة، وتكثر الفواكه مثل الرمان والعنب والبطيخ والليمون والتين والمشمش والخوخ وما إليها.

تتناثر هناك مجموعات صغيرة من المنازل في الواحة، ولا تستحق وصفها بالقرى الصغيرة إلا بصعوبة. وهناك أيضاً البيوت الريفية المنعزلة «القصور»، إلاّ أن

معظم السكان يتركـز وجودهم في المدينة أو «الحلة» كما يسـمونها، والتي تقع في فراغ عميق على الجـانب الشرقي من كتلة النخيل. تحيط بالمدينة أسـوار قوية عالية ترتفع لخمسة وعشرين قدماً وتتوِّجها حصون في كلٍّ من الأركان، وبعض فواصل في بقية السـور. كما تمتدّ المدينة فوق مسـاحة كبيرة مكوّنةً شكلاً سداسـياً، أبعاده كما يلي: الحائط الشـمالي طوله ٥١٠ أقدام، وبه بوّابة على بعد ١٣٠ خطوة من طرفه الشرقي، مع وجود برجين في طرفيّ الحائط، واثنين آخرين بينهما؛ والحائط الغربي طوله ٤٠٠ خطوة، وبه بوابتان - لا تفصل بينهما مـسافة كبيرة - بالقرب من منتصـفه، وفـيه أربعة أبراج، واحـد على كلٍّ من الطرفين والبـابين؛ والحائط الجنوبي طوله ٥٣٠ خطوة وبه بوّابة يعلوها برج على بعد ٢٤٠ خطوة من الطرف الشرقي، كمـا يوجد برجان، واحد على كلٍّ من الطرفين، أما الحائط الشـرقي فبه ثلاثة أبراج.

وأخيـراً هناك حائطان يكوِّنان شكل (L) ويصلان بين أطراف الحائـط الشمالي والحائط الشـرقي. وطول الجزء الذي يمتد بين الشـمال والجنوب يبلغ ١٧٠ خطوة والآخـر الذي يمتـد بين الشرق والغـرب طوله ١٠٠ خطوة. ليس هـناك مخـرج للمدينة من النـاحية الشرقـية حيث يواجـه الجانب بكامله النفـود أمَّا هيكل المدينة الداخلي فهو بسيط ومنتظم. ويصلُ طريق طويل بين البـوابتين الشمالية والجنوبية، ويرتبط الطريق نفـسه بالجـانب الغربـي حيث يذهب لكلٍّ بوابة في ذلك الجـانب طريقٌ عرضي، كمـا يوجد عدد من الطرق الجانبيـة تربط كلّ أجزاء المدينة مع هذا الطريق أو ذاك. وهناك قلعة عظيمة تحـتلّ كلَّ الركن الجنوبي الشرقي للمدينة التي تكوِّن أجزاءٌ من سـوريْها الجنوبي والشـرقي الحائط الخارجي للقلـعة، وترتبط هذه الأسوار لتكمِّل الإحاطة بالقلعة بحوائط داخلية ذات أطوال مماثلة، أوَّلهما: الحائط

الذي بُني من البوابة الجنوبية بطول حافة الطريق الرئيس، والآخر: يربط طرف القلعة الشمالي بالنقطة المقابلة لها في السور الشرقي. وهناك مساحة خالية فسيحة تتوسط المكان بين الواجهة الشمالية للقلعة وبين المساكن الموجودة في ذلك الجانب، وتمتد من الطريق الرئيس إلى الحائط الشرقي وتُستغلّ بصفتها موقعًا للسوق. كما توفّر احتياجات السكان أيضاً عدد من المتاجر على الطريق الرئيس وفروعه العرضية التي تصله بالأبواب الغربية. ويقع «الجامع» الكبير بمحاذاة الطريق الرئيس بالقرب من البوابة الجنوبية، كما يواجه مدخل القلعة. أمّا المساجد الأخرى فهي موزعة في المدينة. تحتلّ البيوت السكنية بقية مساحة المدينة، معظمها من طابقين وهي جيّدة البناء وفسيحة بصورة غير طبيعية، بل لعلها بتطرّق. تتخلل كل المكان سيما الغنى والثراء، ويتّصف سكانها بقدرٍ وافر من الاعتداد بالنفس والرضى المفرط عن الذات. وقد يبلغ عدد السكان ٨٠٠٠ نسمة، بما في ذلك سكان القرى الصغيرة المنعزلة والمنازل الريفية «القصور»، ومعظم السكان من قبيلة الدواسر ويختلط بهم بعض بني تميم وقحطان والعبيد وغيرهم.

كان خبر وصولي إلى المدينة قد عُلم وانتشر، وكانت معارضة مجتمع المدينة للزيارة سلبيةً. ولكن عندما تلقى الأمير ناصر بن عبدالله وهو دوسري- خطاب توصية من ابن سعود- وكان إبراهيم هو الذي سلّمه إليه- عاملني بكثير من الاحترام والتقدير وسمح لي بكلّ الإمكانات لتفقّد المدينة وضواحيها، واستضافني ورفاقي في غرفة استقبال فسيحة بالقلعة عندما قمنا فور وصولنا بزيارة رسمية له، ومرّة ثانية في المساء. وفي المناسبة الأخيرة سمح لي بارتقاء سطح المبنى لأشاهد المدينة بينما ذهب الآخرون للمسجد لأداء صلاة المغرب. لفَّ المكان لفترةٍ قصيرة صمتٌ عميق لم يكسره سوى ترتيل الأئمة أثناء الصلاة واستجابة المصلين في ستةٍ

من المساجـد. كانت الطرق خالية تمامـاً، ولكنني لاحظت مجموعـات من النساء تجمّعن على أسطح المنازل القريبة هنا وهـناك، وهنّ ينظرن بفضول وتعجّب للكافر الغريب الذي لا يصلّي الصلاة في وقتها المعلوم.

كان أمـير الدلم- إضافةً لتـصريف شؤون مـدينته - يمارس هيمنة عـامّة على أمراء قرى الخرج الأخرى، خاصة في قـضايا النزاعات بين القرى والأمور الخاصة برفاهية الإقليم بكامله، كما كان المسؤول الوحيد عن إدارة المنطقة البدوية. لم يكن يُطلق عليه وصف أمـير الخرج، ولكن رغم أنّه لم يكن سوى المقـدّم بين أكفاء - هم بقيـة الأمراء - لكنه كان يتـمتع بشيء من التبـجيل والاعتـبار اللذين يرتبطان بوظيفة كهذه نظراً للأهمية المتعاظمة للمـسؤوليات الخاصة والصلاحيات الاستثنائية التي يتـمتع بهـا. إنّ الإقليم بوصفـه مركـزاً للبدو يضـفي صعـوبة وأهميـة على المسؤولـيات الإداريّة، إذ أنّه ملتـقى لعناصر مـختلفـة لا تكون طوال الوقت على وفاق، وعلى سبـيل المثال هناك الدواسر الذين يقطنون وادي العقيـمي، وآل شامر الذين يسكنون في جزء عليّة من مرتفعات طويق، وهناك قبائل سبيع والسهول في منطقة وادي حنيفة. وتقع مـسؤولية تصريف الأعمال القضائيـة المحضة على عاتق «قاضي» المنطقـة، وهو أيضاً يتخذ من الدلم مـوقعاً لتصـريف أعباء وظيفـته، أما مسؤولية الأمير القضائية فـتنحصر في التوقيع المصدِّق للأحكام، ومن ثمّ تنفيذها، سواء أكان ذلك في الـقضايا الجنائية أم المدنيـة. وتقع على عاتق الأمير مـسؤولية جـمع الزكـاة وبقـية الموارد المـالية وتصـريف كل الأعـمـال الإدارية والتنفـيـذية وصلاحياته في هذا الشأن واسعة ، كمـا أن تفصيلها غاية في البساطة، إذ أنّ عليه أن يُقرر في كلّ ما يُعـرض عليه من أمور إن استطاع ذلك، وإلا فـإنه يحوّل الأمر إلى الرئاسة في الرياض.

نصبنا خيامنا خارج المدينة مباشرة، في ركنها الجنوبي الغربي على شريطٍ من أرض رملية بين المقابر المحلية ورقعة معزولة من أرض مخصصة لزراعة الحبوب يحيط بها سياج من الأثل، وعندما تجمعنا لوجبة الغداء تحت الظُّلَّة التي كانت تنصب عادةً لرفاقي أثناء الوقوف في رائعة النهار القائظ. حينها عرّفني إبراهيم بدوسري شاب اسمه محمد، ولعلّه في الثامنة عشرة من عمره، كان قد حضر لمخيّمنا لتوّه على أمل أن يتخلّص من رأسين من الخراف كان قد أحضرهما من خيام أهله في هضبة العرمة البعيدة، وفشل في بيعهما في المدينة، في حين أنّ مبعوثينا عادوا دون أن يتمكّنوا من ابتياع ما يلزمنا من لحم للرحلة التي تنتظرنا. في كلّ الوقت الذي أمضيته في الجزيرة العربية لم أرَ رجلاً بلغ من الكمال الجسدي ما بلغ ذلك الشاب، الذي نُحتت تقاطيع وجهه بنعومة والذي كان جسمه لدناً مطواعاً وقوياً كجسم مُهر، وكان حديثه وطبعه المنفتح السار خلواً من التعصّب الذي يستهدف الغرباء في البلاد السعودية ليقف حاجزاً دون التقارب السريع والحميمية. لقد تجشّم كل العناء وأتى طاوياً لكلّ تلك المسافات ليكسب قليلاً من الدولارات ببيع خرافه، ولكنه عندما علم أننا نتّجه نحو الأفلاج وأننا كنّا في حاجة لصحبة من يعرف المنطقة التي سنمرّ عبرها، تطوّع بمرافقتنا كدليل، وأصبح من الآن عضواً في جماعتنا. ومنذ تلك اللحظة بقي بجانبي طوال الوقت خلال الأيّام التي قضاها بيننا، ولقد أفادني بكمٍّ هائل من المعلومات عن الإقليم الذي عبرناه، والذي كان يعرف كلَّ بوصة فيه، وكان ما أعطانا في هذا الجانب أكثر مما أخذه منا من منحة ماليّة.

عندما كنت أتجوّل حول المخيّم في المساء، وقبل أن ينحسر عن السماء الوهج الضوئي الأخير، لاحظت أربع نساء تحملُ كلٌّ واحدة منهن إبريقاً مليئاً بالماء وهنّ

في طريقهن إلى موقع معيّن في المقبرة، إلى أحد القبور التي تم حفرها حديثاً في الرمال. كان هؤلاء النسوة - كما قلن لي - طلائع مجموعة الدفن ومُهَمَّتهنّ إعداد اللّبِنْ الطيني الذي يُستخدم لتغطية الفتحة التي يرقد في أسفلها الجثمان، قبل أن يُهال عليه التراب. تُحفر القبور في هذا الإقليم إلى أعماق تصل من أربعة إلى خمسة أقدام للرجال، ويعمّق القبر قدماً آخر في حالة النساء.

ويقدّر الحفّارون في كل حالة العمق المطلوب بالتقريب قياساً على قاماتهم أنفسهم يكون عمق القبر في حالة الرجال حتى ارتفاع صدر الحفّار عندما يقف منتصباً في حفرة القبر، وفي حالة النساء، حتى ارتفاع رأسه. إنّ ما يعلّلون به هذا الاختلاف بين الجنسين هو أنّه يحقّ فقط للوالد والأخ والأقربين النظر إلى المرأة حتى وإن كانت ميّتة، والعمق الإضافي يضمن ألاّ يستطيع أيٌّ من المارّين من الرجال أن يرى غير متعمّدٍ الجثمان في قبره، بعد حفر القبر إلى العمق المطلوب.

يتواصل الحفر وإزاحة التراب عن وسط القبر الذي يُسمى اللحد، وفيه يُدلّى الجثمان على جانبه، ويكون الرأس متجهاً نحو الشمال والوجهُ مستقبلاً «للقبلة». يُكسى (يكفن) الجثمان في حالتي الرجال والنساء بملابس بيضاء، «غترة وثوب وسروال»[1]، وكلها مخيطة مع بعضها البعض لتصبح كلٌّ أجزاء الجسم والأكف والأقدام والوجه مخفية عن الأنظار، والاستثناء الوحيد هو في حالة الأطفال الذين تُكشف وجوههم جزئياً. بعد أن يُوضع الجثمان في لحده ويغطى بطبقةٍ من اللبن الطيني ويُردم القبر بالتراب الذي يُدَكُّ إلى أسفل ويُرش عليه الماء بطريقة تجعله لا يعلو فوق سطح الأرض إلاّ ببوصات قليلة. بعد هذه المرحلة هناك اختلاف آخر يميّز النساء عن الرجال، وهو أنّ قبور الرجال تُوسم بحجرين، أحدهما في جانب

(١) الصحيح أن المتوفى يكفن بقماش واحد أبيض يطوى به مجرداً. (المراجعون).

الرأس والآخر في جانب الأقدام. أمّا النساء فيتميزن بحجرٍ إضافي يوضع في منتصف المسافة بين الحجرين. وهذا التمييز يتعارض مع المبادئ السلفية الملتزمة، وتبدو العلة منه ضرباً من الخرافات، كان التعليل الوحيد الذي سمعته عن الأمر أنّ النساء يكنّ بعد الممات - كما هنّ في حياتهن ـ أكثر طيشاً وأقل اتزاناً عن الرجال، لذلك تحتاج أرواحهنّ لوزن إضافي ليُبقيهنّ في قبورهن، وإنْ أهمل هذا الاحتياط يرجعن ليُنزلنَ الكوارث بأزواجهن الناسين لهنّ [1]. إن كان هذا التعليل سائداً بين الناس حقيقةً، فإنّه لا يُدهشني إذ أنّ البسطاء والجهلاء من الرجال رغم كل التعاليم والتأكيدات التي أتت بها إليهم مبادئهم العقدية لا يُنتظر منهم أن يتحللوا من كل آثار المخاوف والأوهام المتوارثة من أسلافهم.

أفقنا صباح اليوم التالي في الوقت المناسب، وتحرّكنا تسوقنا نسمات شمالية صحوة، وكان جهاز قياس الحرارة الذي سجّل ٥٣° فهرنهايت فقط في صباح اليوم السابق، قد سجّل الآن في الرابعة صباحاً ٥٧° فهرنهايت، إنّ الأوقات معتدلة الحرارة جدّ قصيرة في هذا الموسم. كانت المراحل الأخيرة من سيرنا النهاري في العادة منهكَةً بقدر كبير، وعندما ابتعدنا عن حافة الواحة التي يُعرف الجزء الجنوبي من نخيلها باسم عيضار، صار طريقنا موازياً لعرق الضاحي، واخترقنا سهلاً فسيحاً تبدو فيه - بعد فواصل - آثار الزراعة، وتحدّه من الجانب الغربي سلاسل تلال خشم الكلب، وأبو خيالة التي تتلوها على البعد سلسلة تلال شعارة والشط المعتم لجبل عليّة، بينما تناثرت في السهل عن يسارنا المنازل الريفية «القصور» في

(١) يلاحظ أن المؤلف لا يتردد في نشر أكثر ما يسمعه أثناء رحلاته، حتى ولو كانت من «أحاديث خرافة»، والواقع أن قبور النساء لا تختلف عن قبور الرجال في شيء. (المراجعون).

اتجاه كـثبـان عرق الضـاحي، التي انتصب من خلـفها منحـدر بوهيث الصـخري الشاهق الوعر امتـداداً لسلسلة القُصيْعة. وكان طريقنا يمـرَّ بجوار، أو يخترق ثلاثاً من مجموعات النخيل وهي بُلَيْسة التي تبعد ميلين عن النقطة التي بدأنا منها مسيرة اليوم، وبعد نصف مـيل آخر زُمَيْقة، وهي قـرية صغيرة مسوّرة تحـيط بها خرائب لمساكن ورقاع مفرقة من النخيل مع مساحة كبيرة من أراضي الحبوب، وأخيراً فُريحْ وهي المستوطنة الأخيرة من ناحية الجنوب، إذ أنَّ الـمُشـيْرفة التي تبعد ميلاً عنها، وتقع غرب طريقنا لا تعدو أنّ تكون مجموعة من الخرائب.

بعد مسيرة ساعتين بلغنا النفود التي تجرى هنا بميلٍ إلى داخل السهل وتكسوها غلالة رقيـقة من شجيـرات الغضا. وواجهتنا الـرمال العميقـة التي تتراكم مكوّنة سلسلة من روابٍ عاليـة عارية، ودلفنا بين اثنين من أكبر هذه الروابـي حيث قادنا الطريق لاجتياز قمّة النفود، ثم هبطنا بحـدّة من الجانب الآخر نحو بركتين كبيرتين لكنهما ضحلتان، أولعلهما كانتـا بقايا مياه السيل. يُسمّى المكان خبر الكُدن، وهو منتجع أثيـر لدى البدو ويقال إنه مـعلمٌ دائم لا ينضب معـينه من الماء، أبعاد هذه البرك حـوالي ١٠٠ في ٥٠ خطوة للأولى، و ٥٠ في ٥٠ خطوة للثانيـة، وتحيط بها الرمال من كل الجـوانب وتغذيها المياه المرتدّة من العقيـمي والتي تسيل منحدرة بين الحدود الشرقيـة للرمال ومنحدر الحجارة الرملية الشـاهق الذي يسمّى دغرة، حتى يعوق تقدّمها حاجزٌ من الرمال يصل الاثنين معاً. لا أستطيع أن أجزم أنّ هذا المجرى هو بقايا فرع قديم للعـقيمي، نفذ من خلال مرتفعات القصيـعة ليقترن مع شعيب الثليمـا الذي يصرّف مياهها في اتجاه صبحـا في نقطة أسفل منبعه، ولكن أجمع الكلّ على صِحَّـة هذا الزعم. والذي لا شك فيه هو أن شعـيب الثليما هو مركـز نظام التصريـف في المرتفعات المحـيطة بالمكان، ومن روافده شـعيب أبالذر

وشعيب جـدعان اللذين بدا لي أنهمـا يسيلان منحدرين نحـوه من الركن القصي لصخـور دغرة الشـاهقة وتوقـفنا لسحب الماء من البـركة التي وجدنـا بعض رعاة الدواسر يسقون قطعانهم منها.

تبعنا حافة النفود لمسافة ميلين وبعدها خرجنا من الرمال لندلف إلى رقعة ممتدة من تربة طينيـة شقـقتـها أشـعة الشـمس تقع في الوسط بين الرمـال والصخـور الشاهقة. لاحظنا جوار البرك قـطيعاً من الغزلان تسير مبتعـدةً عبر التلال الرملية، وكثيراً من طائر الطهيوج يتكاثر حول الماء ثم ينفضُّ عنها طائراً في السماء. ولكنَّ مروري بهذا الموقع يرتبط في ذهني بالعدد الذي لا يُحـصى من حشرات الجُدْجُد- التي يسمّـيها العرب وجْـوج - والتي غزت أجمـة الغضا، وحامت حـولنا عندما اختـرقنا الأجمـة لتقع على ملابسـنا وعلى رواحلنا دون أن يتوقّف لبـرهة واحدة طنينها الثاقب.

لم تكن عجائب الخرج قد انقضت بعـد، إذ قادوني نحو سفح منحدر دغرة الصخري لأجد صَدْعَيْن في الصخر، كان أولهما أقلّ إثارةً، إذ كان -لارتفاع كبير - مليئاً بأنقاض الصخور المتساقطـة من جوانب المنحدر الصخري، رغم أنّه - فيما قالوا لي - كـان مليئاً بالماء في أيّام خلت، ورغم أنّ أبعـاد الشق كانت ٣٠ خطوة في الطول وعشرين في العرض. ولكن الصـدع الثاني لم يكن يبعد سوى ياردات قليلة عن يمين الأوّل. كان اسمه خفس دغرة، ويُـظَنُّ أنّه تكوّن نتيجة لسقوط نجم في الموقع، وكان ظاهرة مدهشة، فلقد كان هوّةً متعرّجة في جانب الجبل، وكانت أجزاء من الجبل تتـقوّس فوق هذه الهوّة لتغطّي نصـفها، بينما كان يحيط بنصـفها الآخر حائط صخري ينحدر بحدّة لمسافة ٤٠ قدماً حتى يبلغ مستوى الماء الذي كان يملأ الحفرة صافياً معتماً مـغطى جزئياً بالزَّبَد. كان الصدع دائرياً تقريبًا بقطرٍ يقارب

٧٠ ياردة، وكان يحيط به في الجانب البعيد من الجبل سبعة أعمدة مزوّدة بالبكرات لسحب الماء «مقامات»، اكتشف العرب ذوو الرغبة العارمة في سبر أغوار الأسرار الدفينة نفقاً يبدأ أسفل مستوى الماء ليقود إلى باطن الجبل، ولكن إلى أين؟ هذا ما لم يتمكّن من معرفته أحد.

يمتدُّ أمامنا الآن مثلث الخرج الجنوبي الذي لا يسكنه أحد ولا تُزرع أراضيه، ليس هنا سوى وادي العقيمي والقنوات الصغيرة التي تقترن به آتيةً من سلاسل التلال الجارية على الجانبين. تقع إلى الغرب جروف شديدة التحدر هي شعارة وأم ريشة، ومن خلفها يبدو طويق، أمّا في الشرق فإن نتوء النفود المسمى حليوة اصطفّ مع سلسلتي فَزَّر وخرطم، ونتأت في طرفها القصي الأرض الرأسية المدهشة خشم خرطم متجهة نحو خط طويق المنبعج ليسم الموقع الذي ينحدر منه العقيمي من المرتفعات الخلفية في طريقه لحوض الخرج. تنتهي رمال عرق الضاحي قبالة خفس دغرة في قمّة رملية ظاهرة تُسَمّى مبدى الخفس، ولكن شريطاً ضيقاً - كنا قد عبرناه- من كثبان الرمال يسمى عرق المرداسية يصل رمال عرق الضاحي مع طرف نفود حليوة، ولكن رغم هذا يترك ممراً لشعيب نعيّم الذي ينحدر بين الأخير وسلسلة دغرة ويلتقي بعدها بالعقيمي.

قطعنا السهل الذي كان تارةً عارياً وحجرياً، وتارة أخرى تغطيه أجمات صغيرة من الرمث والسنط في بضع ساعات، وبعد توقف وراحة في مهد شعيب الأرطاوية، كنا نحتاج إليها حقيقة في ذلك النهار القائظ واصلنا السير بينما كانت تحيط بنا المشاهد الرتيبة نفسها. وعندما اقتربنا من رأس المثلث أصبحت تقاطع السهل مجاري السيول الصغيرة التي تغذّي العقيمي، وعبرنا هذه المجاري واحداً

إثر آخر، والمجاري هي: النهيدين ومطيرية ودهلة وخويْش، حتى بلغنا في النهاية فرجةً ضيقة تسيل مياه العقيمي عن طريقها في زمن السيل.

رأينا من هذا الموقع الشريط الضيّق الذي يفصل بين طويق وسلسلة خرطم التي تسم الحدود الغربية لصحراء البياض العظيمة، رأيناه وقد أصبح أكثر عرضاً بفضل مرتفعات سمريات الحجرية الكئيبة الموحشة التي تنتأ نحو الشرق من منحدرات طويق. كانت الأرض الرأسية العارية لخشم خرطم تعلو في جلال من فوقنا على هامة الطرف الغربي للسلسلة والتي تجري بعد ذلك نحو الشرق. أمّا العقيمي الذي يحمل مياه تصريف المرتفعات التي تقع خلفه فيشقّ طريقه عبر الحاجز في قناة ضيقة متعرجة تنحدر سريعاً نحو بداية السهل حيث تكوِّن في وسط الصخور المحيطة به خليجاً له عدد من الأذرع بفعل السيول المتكررة، وتحفّ به وفرة من النباتات ومجموعات من أشجار السنط القوية لتشهد على تعاقب كثير من السيول المانحة للحياة، والتي لا بد أن يكون مرورها عبر هذا الممر مشهداً عظيماً. لقد نزلت السيول أربع مرات خلال الموسم المنصرم، ولا يمكن توقع مزيد من الماء قبل حلول الشتاء القادم. وتابعنا مسيرنا في اليوم التالي ابتداء من رأس الممر الضيق، متتبعين المجرى المتعرج الذي كان مهده الرملي المُغَطَّى بالحجارة يجري بين جانبين محددي المعالم يرتفعان في المتوسط لأربعة أقدام، ولا يزيد عرض المجرى عن ثلاثين إلى أربعين ياردةً. وعندما بلغنا هذا الموقع كانت الشمس قد قاربت المغيب فقنعنا بنصب خيامنا للمبيت تحت ظلّ صخور الخشم الترسبية العادية. والتي كانت قمتها تسمو لارتفاع ٥٠٠ إلى ٦٠٠ قدم فوقنا.

بينما أطلقت الإبل لترعى ، وتوزّع رجالنا في المكان بحثاً عن حطب الوقود، وذهبت أنا في معيّة مترك ومحمّد لقمّة رابية صغيرة قريبة، حيث أطللتُ على

مشهد جيّد جامع لـلأرض التي تركناها خلفنا، وتلك التي سنُقدم عليها من غدنا. لقد غادرنا إقليم الخـرج الآن، وكانت المستوطنات مختبـئة عن أنظارنا خلف رمال عرق الضاحي الذي انتـصب كثيب مبـدأ الخفس كمعلمٍ بارزٍ في طرفـها القريب. ولكنّ السهل المرتفع العظيم الذي بدا أمامنا ناحـية الجنوب، لا بد من الحديث عنه في إطار وصفنا لهذه المرحلة من رحلتـنا، إن لم يكن لسبب آخر، لأنّه يكوّنُ كلَّ الجزء العلوي من العـقيمي، ويمتد نحـو مستجـمع ينظّمُ تصريف المياه في صـبحا والأفلاج. لاح لنا السهل من الموقع الملائم الذي اخترناه في شكل بيضوي فسيح، لعلّ عرضه كـان عشرين ميلاً في أعرض المـواقع، وكانت تحفّ به التلال من كل جانب. وقف من خلفنا خشم خرطم مع سلسلة تلال خـرطم التي تمتد من شرقه وحتى سلسلة تلال قصيرة مزدوجة القمّة تُسمى القُرَيْبين، ثمّ تنحني سلسلة خرطم بعـد ذلك نحـو الجنوب لـتنتـهي في تلّ دائري منخـفض يُـسـمى أم العظمـان. واصطفَّت مع تل أم العظمان هـذا مُنحدرات صخرية منخـفضة تُسـمّى الحُلَيْليّات وتنحو قليلاً نحو الغرب من نقطة تقع جنوباً بالقرب من أرض رأسية تُسمّى خشم دغمة.

وتحازي خشم دغـمة من الخلف الأرضُ الرأسية البعيـدة: خشم المشاش التي تقع في نهـاية سلسلة تلال منخفـضة تتـجه نحو الجنوب. وبدت لـنا أرض خشم المشاش الرأسية من علـى البعد وكأنها تلتقي بمنحنى المنحـدرات الخارجية لطويق، وهوالمنحنى الذي يطوّق الوادي في جانبه الشـرقي من السمريات بالقرب منا وعلى مدّ البصر. وكانت الروابي الصغيرة تتوزع هنا وهناك لتكسرَ رتابة السهل الذي امتدّ أمامنا لمسافـة تقارب أربعين ميلاً، ليتوعّدنـا برحلة كئيبة موحشـة حتى نخرج من إطاره.

كان قائدنا عندما بلغنا مشارف الخرج، محمد الدوسري الشاب الذي كان قد تزوج منذ عهد قريب[1]، وحينها أخذ مني الإذن ليقوم بزيارة خاطفة لعروسه التي بقيت في الأنحاء مع أهلها ريثما يفرغ من شأنه ليأخذها لبيتها الجديد. ويبدو أنه لم يواجه صعوبة في الاهتداء لضالته، كما أنه كان على علمٍ بتحركاتنا إذ أنّه لحق بنا أثناء مسيرة النهار رغم أن خطتنا لم تكن محددة وتُركت تماماً للظروف. عاد الرجل راضياً عن هذه الساعة التي لم يكن يتوقعها، ولم يخجل عندما انفجر الرفاق يحيّون عودته في بذاءة مرحة. كان طامي بوصفه خليعاً متمرساً هو الذي واجَه العريس العائد بإبداء ملاحظات بذيئة متهتكة، ودلّل على استمتاع صاحبنا بشهر العسل بأن أشار لقميصه الذي اتسخ ببقعة طينية في موقع الكتف. لقد كان محمد بلا شك راضياً عن عروسه، وعندما أخبرنا بالمهمة التي يقوم بها أمليت عليه قائمة طويلة بالملابس التي يحتاجانها هو وعروسه.

تابعنا المسير صباح اليوم التالي مرتقين وادي العقيمي الذي تَرَكَتْ فيه السيول الأخيرة علاماتٍ لا تمّحى لتدلّل على مرورها به، ليس فقط على النباتات المورقة التي استمدّ منها جانبا القناة الزخرف والزينة، ولكن أيضاً ببرك الماء المتناثرة التي أنخنا بقربها في ظلال مجموعة كبيرة من أشجار الأثل والسنط لتناول وجبة إفطار سخيّة مكونة من لحم ضأن بارد وأرز كانا قد أعدّا أثناء الليل. كان الوقت مازال باكراً وكنا قد قطعنا تسعة أميال، لذا واصلنا طريقنا الذي اتبعنا فيه تارة انحناءات القناة، وعبرناها تارات أخرى، ثمّ عبرنا - واحد إثر آخر- أول طريقين من طرق الإبل المعتادة التي تنتشر في جميع الاتجاهات من موقعٍ بالقرب من الحوطة نحو

(١) راجع المتن صفحة ٣٢ . (المؤلف).

صحراء البياض حيث يسلكها الباحثـون عن الحشائش لتوفير العلف لأنعام الحوطة والحلوة. أحد هذه الطرق يتابع شـعيب أم العضمان الذي ينحـدر عن جبل يحمل الاسم نفسه، وهو الشعيب الوحيد الذي يمدّ العقـيمي بالماء الوفير في مسيرته حتى هذه النقطة. ولاحظنا بالقرب من هذا المكان أيضاً آثار زوج من الذئاب يبدو أنهما بقيا لبعض الوقت يلهوان في المهد الرملي للقناة بعد أن شربا من البركة التي وقفنا بقربها.

وبعد خمـسة أميال أخـرى سرناها مرتقين الوادي بعد أن تجـاوزنا منافذ ثلاثة لروافد صغـيرة تغذّي العقيـمي، وهي خُرَيْصة من الشرق، ومزعب وحـزمية من الغرب، بلغنا أول الغـدران الثلاثة التي تُسمّى جمـاعياً غدران حلـفاوي، وجاءت التسمية من شعيب حلفاوي الذي يقتـرن بالعقيمي بعد مسافة قليلة آتياً من الجنوب حيث ينشأ عند سفح خشم المشاش. حوّلنا الآن مسارنا بصفة نهائية بعيداً عن خط العقيمي الذي يجري في اتجاه الجنوب الغربي نحو طويق، وضربنا في الأرض فوق سهل رملي متموج عارٍ عن النبات، ثمّ تركنا الغدير الثاني - وهو الذي يوجد في موقع التقـاء حلفاوي والعقيـمي - بعيداً عن يميننا، وتحركنا باتجـاه الغدير الثالث، وهو أكبـرها وكان يسمُ موقعـه أمامنا على البعـد خطٌّ من أشجار السنط في مـهد مجرى حلفاوي.

لم يكن هناك ما يغرينا بـالتأخّر كما كنّا نأمل أن ننيخ للقـيلولة بقرب الغدير، على أن نقـيم تلك الليلة بموقع يسمح لـنا ببلوغ الأفلاج في مـساء اليوم الـتالي. ولكن آمالي تبدّدت حين أصاب الإحباط رفاقي نتيجة لارتفاع درجة الحرارة، وبعد قليل وجدت نـفسي في معـية عـدد قليل من الرفاق وقد تـقدمنا كثـيراً عن بقـية

القافلة. ورغم هذا تابعت المسير مُدّعياً أنني لم ألاحظ المؤشرات الواضحة للرغبة العامة في التوقف، وعندما تجاهلتُ موقعاً يغري بالتوقف، به مجموعة كافية من أشجار السنط العالية بجانب الطريق، فاض برفاقي الكيل إذ كان هذا أقصى ما يمكنهم تحمّله. وكنت قد تجاوزت تلك البقعةِ الظليلة كثيراً عندما جَدّ ابن جلهم في سيره خلفي ليلحق بي ملتمساً أن آمر بالتوقف قائلاً: «هذا أحسن للمقيل، والماء بعيد يا صاحب، خلينا ننزل بِهَذا ونرتاح ونمرح الماء». ولكن محمداً كان قد طمأنني أنّ الغدير لم يكن بعيداً، وكان خوفي -من إجهاض أملي في تخطّي ذلك الغدير بمسافة كبيرة إن لم نبلغه قبل التوقف للقيلولة- هو الذي جعلني أرفض التماس ابن جلهم الذي عاد خائب الرجاء ليخبر رفاقه بقراري.

جرى تشاور حول العصيان وقررت المجموعة التي كانت خلفنا بالإجماع النزول في ذلك الموقع المختار. وصاح إبراهيم محاولاً إرهابي بقراره: «يا صاحب نقيِّل بهذا»، وأجبته ملتفتاً من فوق السرج دون أن أتوقف: «قيّلوا انتو بكيفكم، وأنا واللي معي بكيفنا». في هذه اللحظة كنت متقدماً أمام الآخرين بمسافة كبيرة، وحيداً بمفردي ولكنني لم أكن آسفاً أن قد حانت اللحظة التي لم يكن منها بدّ، وهي المواجهة بيني وبين إبراهيم التي كانت قد تأخرت تحيُّناً للظرف المناسب، وها هي تأتي نتيجة لمخالفة صريحة منه لأوامري. واصلت سيري برفقة مترك الذي أرسله إبراهيم لإقناعي بالعودة بعد أن عاد محمد خائباً، وبعد أن تجاوزنا المتمردين بمسافة ميل رأيت أنه ليس من المناسب متابعة السير أكثر من هذا لسببين، أولهما: أنّه لا ينبغي الاقتراب من مواقع الماء دون إكمال الإجراءات التحوطية اللازمة، وثانيهما: لرؤيتنا قطعاناً ترعى في الأنحاء دلالة على وجود رعاة من الدواسر في المنطقة. وأنخنا مطايانا في السهل العاري ونشرنا فرشنا تحت ظل

شجـرة سنط غير ظلـيلة، استعـداداً لقضاء السـاعات القائظة مـن النهار في ذلك الموقع، ومعنا فقط بقايا الماء الذي كنت أحمله معي في زجاجة والتي تقاسمتها مع رفيقيَّ، بينما كان لي عزاءٌ إضافي في غليوني تحمل مـترك بشجاعة غياب القهوة، ورغم أنّه كغيره من أبناء جلدته يحبّ مسرّات الحياة، إلا أنّه تمرّس على تحمّل كل الصعـاب نتيجـة لحياة المشقـة التي عاشهـا من قبل وتحمّل غـياب القهـوة بعد أن عارضت رغبته في الإتيان بها من المخيَّم الآخـر. وقضينا فترة القيلولة بين الحديث والنوم، بينما كان المحمدان يتبادلان مواقعهما بين مخيمنا والمخيم الآخر.

كـان جهـاز قيـاس الحرارة يقـرأ في السـاعة الثـالثة درجـة قريبـة من ١٠٤ْ فهرنهـايت، ساعتئـذٍ أفقتُ من نوم خفيف عنـد وصول إبراهيم وبقية المجـموعة لموقعنا، ومرور «الحملة»، إذ كـانت عادتنا إرسال جماعة الخـدمات أمامنا من موقع المقيل لتصل قـبلنا للموقع المحدد لمخيم المبيت، بيـد أنني لم أظهر أنني كنت على علم بوجودهم، وتظاهرت بالنوم لأسـمع ما يقولونه، واستـمتعت بسمـاع الكثير الذي قالوه عن عـدم عقلانيتـي. وفي النهاية جلست وكأنني أفـقت لتوّي من نومٍ أعاد إليّ حـيويتي، وأبديت دهشتي لوجـودهم بيننا، وطلبت من متـرك أن يعمل على نصب خيمتي وإعداد القهوة، وفي هذه الأثناء خاطبت المجموعة قائلاً: «ماذا تقولون عن تصرفكم اليوم وأنتم ترون أنّ ابـن سعود قد أعطى إبراهيم وابن جلهم -عندماجاء ليودّعني - أوامر صريحـة بأنّهم مسؤولون عن سلامتي وراحتي، ولم يكن يحقّ لهم تحت كل الظروف أن يتـركوني بمفـردي، وكان عليـهم أن يطيـعوا أوامري كما لو كانت أوامره هو؟ ورغم هذا عندما صار لكم الخيار بين أن تتبعوني أو تتبعوا إبراهيم أجمعتـم على اتباعه، وبفعلكم هذا قد أقررتم له بأنه رئيس هذه الحملة وليس أنا. إذن ليكـن الأمر كذلك، ولكن من الآن فصـاعداً توجهـوا إليه

طلباً للعطاء ولا تأتوا إليّ. والآن لماذا أتيتم جميعاً إليّ؟ أنا لا أريد منكم أحداً، وأنا راضٍ بالقرار بأن يذهب كلّ منّا بمعزل عن المجموعة الأخرى، وأن يخيّم كلٌّ بمفرده. اذهبوا إن أردتم إلى حيث تودّون، أنتم وإبراهيم، ولكنني قررت أن أبقى هنا للمبيت. إنّ طمعكم وكسلكم هو الذي حدا بكم للتوقف بينما كان الطقسُ معتدلاً يسمح بالمسير، أمّا الآن وقد أخذتم كفايتكم من الطعام والمنام تودّون أن تسيروا رغم أنها أكثر ساعات النهار حرارة. كان كلّ ذلك القلق للوقوف كما ادّعيتم من أجل الإبل التي ما وجدت شيئاً تقتاته في موقع «مقيلكم»، والتي تودّون أيضاً ركوبها فوق السهول الحارقة في أكثر أوقات القيظ حرقاً. افعلوا ما بدا لكم، ولكنني سأبقى هنا للمبيت، ولن تشتكي الإبل من شيء. ولكن هذا ليس كل شي، أريدكم أن تشهدوا؛ يا طامي عندما كنا في الطائف وجدة لقد أسررت لك عمّا كنت أعانيه على يدي إبراهيم أثناء المسير، ثم أخبرتك ثانية قبل أن نبدأ هذه الرحلة عن مخاوفي من أنّه سيكون سبباً في مزيد من المشاكل، ولكنك تعهدت بألا يحدث شيء من هذا، ورغم ذلك، وعند أول سانحة برهنت الأحداث صدق حدسي إنّه هو الذي ضلَّلكم جميعاً، وسيفعل ذلك مستقبلاً. لذلك دعونا لا نبرح هذا المكان حتى نقرر إن كانت رغباته أحقّ أن تُتّبع أم رغباتي. دعوه يتولّى القيادة، لا ضير في ذلك وسأتبعه حتى تنتهي هذه الرحلة، ولكن اسعو إليه، وليس لي لتحقيق الربح، وسيحكم بيننا ابن سعود في نهاية الأمر».

قلت هذا ودلفت إلى خيمتي متجاهلاً كل المحاولات التي بُذلت لتهدئة خاطري وحنقي، ورغم التماسات المجموعة لمواصلة السير. لم يجرؤ على الاقتراب مني سوى مترك ومحمد فقط أثناء فترة ما بعد الظهيرة، وأحضر لي

الأخير غزالاً صغيراً عمره يوم واحـد، كانوا قد التقطوه أثناء السير، وقاوم الحيوان الصغيـر كلّ محاولات إسقـائه اللبن، ولكنه سرَّى عني بمحاولاته المتـمردة للهرب من القيـد الذي كان قد رُبط إلى وتد في داخل الخـيمة. ورغم كل مـا حدث من تحوّلات وندم في مخـيمنا، فلقد قررت أن أواصل في إصرار إظهـار عدم الرضا، لا سيما نحو قادة المجموعة من أجل تصحيح مـسار علاقاتنا مستقبلاً. وبعد وجبة المساء التي تناولناها في صـمت مطبق ذهبت لأنفرد بنفسي في خيـمتي وأنا أسائل نفسـي عن الأثر الذي أفرزته العـاصفـة التي هبّت من جرّاء أحـداث اليوم وعـمّا ستتركه من أثر على العلاقات المستقبلية بيننا. كان على إبراهيم -على أيّ حال- أن يفكر ويتأمّل في الأسباب التي قادتني لمهاجمته علناً، وما كان ليلوم غير نفسه على ما حدث. كنت مُـصراً على أن أتابع القضيـة حتى نبلغ فيهـا قراراً، وكنت على يقين من أنّ بُغض العرب الطبيـعي ومقتهم لتطاول مُدّة الألم سيـساعد على الأقل في تحقيق أغراضي، وهي السيـر بسرعة معقولة خاصة عبر الأجزاء المـقفرة الكئيبة من الرحلة الطويلة التي تنتظرنا.

لقد كان حكمي على الأمـور وتقييمي لها صائبـاً، ولكنّ الصراع لم يكن قد حسم بعد. وبعد أن اغتسلت في الصباح انضممت للحلقة حول نار المخيّم كالعادة ولكنني تركت - بطريقـة لفتت الانتـباه - الأمر لإبـراهيم ليعطي إشـارة البدء في المسير.

كانت الجولة الأولى في مسيرة اليوم جدّ قصيرة، إذ أن الغدير الذي كان علينا أن نسحب الماء منه، كـان على بعد ثلاثة أميال ليس إلاّ. كـان الطريق حتى ذلك الموقع يسيـر فوق سهل عارٍ متـموج، وكان يقتـرب تدريجياً من شعـيب حلفاوي

الذي تسم موقعه أشجار السنط، والذي كان يبعد مسافة ميلٍ إلى اليسار من موقع مبيتنا، وكان الطريق يسير أيضاً موازياً لخطّ سلاسل تلال دغمة والمشاش التي تمتد على بعد ثلاثة أميال إلى الشرق، بينما كانت تلوح بعيداً في الغرب مرتفعات طويق الممتدة التي ارتفع على هامتها شكلان مخروطيان قالوا لي إنّهما يسمان الموقع الذي يصدر منه وادي برك نحو السهل. وعبرنا نفس هذا الشعيب على بعد نصف ميل من الموقع الذي يلتقي فيه مع شعيب حلفاوي قبل أن نبلغ الغدير الذي يقع في مهدِ الشعيب نفسه على بعد نصف ميل أعلى نقطة الاقتران المذكورة.

وجدنا الحملة بجوار البركتين الكبيرتين الممتلئتين بمياه الأمطار اللتين تكونان الغدير وكان أفرادها يسحبون الماء اللازم لأعمال الطبخ. ترجّلت لأدخن غليوني في هدوء بينما كان الرفاق يملؤون قرب الماء. كانت تحفُّ بمجرى الوادي على الجانبين أشجار السنط جيدة النمو أعلى وأسفل برك، ورأينا بجوار مصدر الوادي الذي ينبع من سطح الأرض الرأسية - خشم المشاش - موقع ماءٍ دائم خاصاً بالدواسر، وهو مكوّن من مجموعة من الآبار غير المبطنة، أو بالأحرى ثقوب ماء، تُعرف باسم غريب: مشاش النسوان. كان مهد النهر مكوّناً من كتل عظيمة من صخور الحجارة الجيرية، وتغطيه صخور جلمودية ضخمة، والتي تركت بفضل الماء والخضرة الوافرة فوق حوافها أثراً جميلاً في خضم تلك الصحراء المقفرة العارية.

عندما عاودنا المسير، تتبعنا الجانب الأيمن لشعيب حلفاوي لمسافة ميل واحد حتى الموقع الذي ينحني فيه الشعيب بحِدّة إلى الخلف عائداً نحو خشم المشاش. ويقترن به في جانبه الأيسر شعيب كبير من منحدرات طويق هو شعيب طلحة.

وفي هذه النقطة عبرنا المجرى الصخري الذي يضم رغماً عن ذلك كثيراً من الأشجار، والذي لاحظت فيه بعض البرك تفيض بالماء بين الصخور. ثم تركنا هذه من خلفنا وتتبّعنا تارةً شعيب طلحة الذي كانت تغطيه الحصباء، أو كنا نسير إلى جانبه حتى اقترن بشعيب بعيجة. وبعد ذلك أخذ الأخير يبتعد عنا تدريجياً ناحية اليمين نحو طويق، وواصلنا نحن فوق سهل سطح هائل مكوّن في معظمه من تربةٍ طفلية ناعمة ولكن مع وجود خطوط قليلةمن الحصباء. امتدّ هذا السهل نحو مرتفعات انصلح وهي رقعة جرداء تصلُ الجانب الغربي للبياض مع الأطراف الشرقية لطويق، وبذا تكوِّن الحدود الشمالية ومستجمع الأمطار لشبكة التصريف الواسعة المكونة من المجاري التابعة لنظام تصريف صبحا.

واصلنا السير في مجاهدة ونصب فوق الأرض المقفرة المسطحة الرملية دون أن تُسَرِّي عنا رقعة معشبة أو خضراء، وكانت تلهب ظهورنا أشعة الشمس الحارقة التي لا ترحم. كانت النسمة الجنوبية الرقيقة تهبُّ علينا في بداية السير ولكنها تراجعت لتترك سكوناً مُمضّاً لا تحركه نسمة أو هواء.

كانت الحرارة الحارقة والبطون الخاوية قد جعلت رفاقي يختلسون النظر نحو الحملة التي كانت تحمل كالعادة خليط اللحم والأرز البارد الذي كان يُعَدُّ ليلاً من أجل إفطار الغد، ولكن لم يرتفع صوت مطالباً بالتوقف لبعض الوقت، بل على النقيض من ذلك كانت هناك رغبة لزيادة السرعة التي نسير بها. وتنفيذاً لقراري فقد كنت أمشي تابعاً وليس قائداً، وكانت ذلولي التي تستجيب لرغباتي قد أفسحت المجال للآخرين للتخطّي، وكنت في بعض الأحيان أسير خلف الحملة نفسها، وكان مترك ومحمد يتأخران في بعض الأحيان ليحثاني على زيادة السرعة

فيلقيان محاضرة عن ضرورة الترفق بالمطايا في الحرّ القائظ. وبعد أن فشل طامى من تحمل الجوع عاد إلى المؤخرة محتجاً بصوت جهير معلناً أنه سيموت إن لم يجد طعاماً، ولكنني أخبرته أن عليه أن يُخبر إبراهيم بما هو فيه من بلاء، إذ أنّه الذي كانت مقاليد الأمور بيديه الآن وفقاً للقرار الجماعي الذي اتخذوه في اليوم السابق، وأخبرته أن قراري بعدم التدخل في سلطاته قرار لا رجعة فيه. اعتاد العرب على تحمّل غياب الطعام، لكنهم لم يكونوا يستطيعون الصبر على تأخير تناول ما بأيديهم من الطيبات. وانقلب الشعور العام الآن ضد إبراهيم، إذ أنه سبب متاعبهم. تراجع إبراهيم ليحاذيني حيث كنتُ أسير في مؤخرة الركب وهو يحتج بأنني فهمته خطأ، وصار يؤكد لي بحماسة زائدة أنه لن يعصي لي أمراً في المستقبل. ولكنني أخبرته أنني لا أود أن أناقش الأمر معه، إذ أنني قد توصلت إلى قرار لا رجعة فيه وهو أن يصبح هو القائد الوحيد، وعندما أصرّ على مناقشة الأمر حثثت ذلولي بالإسراع تاركه خلفي وهو يستجدي العفو بصوتٍ جهير.

في هذا الوقت كنا نقترب بسرعة من حافة مرتفعات انصلح التي كانوا يُلقبونها أم الركبان لأنها كانت موقعاً أثيراً لعصابات النهب الذين كانوا يختبئون بين طيات المرتفعات لينقضّوا وينهبوا القوافل المارة بين الحوطة والخرج والإقليم الجنوبي. وفي تلك الأزمان كانت قبائل المنطقة هم الذين يثيرون الرعب في الأنحاء بالنهب المتكرر، ولكن في الآونة الأخيرة ساد الأمن والسلامة في هذا الصقع الخطر، ويعود الفضل في هذا للإجراءات الشديدة التي تبنّاها ابن سعود لمنع قطع الطرق ولاستغلال الجهود والطاقة التي كانت تبذل في السابق في هذا الجانب نحو أعمال أكثر فائدة. صار رجالٌ مثل مترك وآخرين من الجماعة المرافقة لي، الذين كانوا يوماً ما يعيشون مستخدمين دهاءهم على حساب مواطنين

مسالمين أثرياء، صاروا الآن راضين عما ينالونه من مرتبات دائمة من خزينة الدولة كأجور لهم على عملهم كرسل للدولة.

تسمى التلال الخارجية لهذا الصقع مُداحيّات وهي تقع في اتجاه الشرق، بينما نجد برقية إلى الغرب، وبينهما يمتد السهل الآن كالوتد العريض، بينما كانت تظهر من حين لآخر رقاع رملية تتحللها شجيرات السر وتغطيها نباتات متفرقة من عشب الآضر المخضر. وهذه النباتات هي التي أكسبت السهل في هذا الموقع اسم شعيب، ويبدو أنّ مياه الصرف تنزل فيه من المرتفعات في طريقها لشعيب حلفاوي. وتابعنا المنخفض حتى بلغنا في النهاية حزمة من الكثبان الرملية ارتقينا من خلفها ارتقاءً حاداً مستخدمين ممراً ضيقاً لنبلغ المرتفعات نفسها، واخترقناها في الموقع الذي تفترق فيه طريق القوافل التي تأتي من الجنوب لاتجاهين؛ يذهب أولهما إلى الحوطة والآخر إلى الخرج.

وتابعنا المسير وعبرنا مجرى مائياً صغيراً يُسمى قُريع الذيب، ثم شعيب نسلة نفسه. وكانت خلفية كل واحد منهما روابي عارية مقبضة تغطيها الحجارة، ولكن الأخير كان مهده الرملي شديد الانحدار ومائلاً وعريضاً يجرف جانبه في المنحنيات. ووفقاً لما أستطيع تأكيده فإن هذا الشعيب يقترن في النهاية بشعيب مداحيات رغم أنه يحمل قليلاً من الماء في حالاتٍ نادرة. ورأينا في الجوار بركة ماء مما أعطى مؤشراً لمرور السيل منذ عهد قريب، ولكن ثقوب الماء التي احتفرت في الرمال إلى الأعلى قليلاً كانت جافة، رغم أن الماء يمكن الحصول عليه هنا دون صعوبة بحفر ثقوب جديدة في أي مكان في المجرى. كان الذي يفصل شعيب انصلح من وادي الخبي الذي هبطنا إليه الآن عبر منحدر مقفر طويلٍ لطيف التدرج

سلسلة تلال منخفضة. وقبل ساعة من منتصف النهار بلغنا رقعة من السنط عند رأس شعيب الخبي الذي يقترن في النهاية مع انصلح، وكنا قد سرنا لمدة خمس ساعات دون توقف منذ أن غادرنا غدير حلفاوي. حينها قُدّم إليَّ التماس أخير لأعطي الإشارة بالتوقف، لكنني لم استجب، واضطر إبراهيم لإعطاء الإشارة.

أتى إليّ الآن وفدٌ مكون من ابن جلهم وطامي وأبلغاني التماس إبراهيم للصفح عما بدر منه، وألحّ عليَّ طامي أن أعفو عنه واعداً إياي أنه لن يفعل شيئاً يثير حنقي مستقبلاً. كان هذا الأمر الآن قد طال أمده وكان الإجهاد الذي تحمّله الجميع أثناء النهار دليلاً كافياً على روح الندم من المجموعة بكاملها، لذا أرضيت نفسي بأن طلبت من ابن جلهم وطامي أن يتعهدا أمام الجميع بأن يكونا مسؤولين عن تصرفات إبراهيم مستقبلاً، ثمّ أعلنت وسط ارتياح من الجميع أنني قد عفوت عنه متجاوزاً عن تصرفاته السابقة شريطة ألاَّ يكون هناك مجال في المستقبل على الإطلاق لازدواجية القيادة، وألاّ ترتفع الهمهمات المعارضة. وقد بدا إبراهيم في هذه الأثناء خجلاً وهو يشغل نفسه بنصب خيمتي، وتساءل إن كان قد عُفي عنه. تحدثنا بعد ذلك كثيراً وكان المؤشر لإعادة العلاقات الوديّة هو ظهور الوجبة التي طال انتظارها كثيراً والتي أوفيناها حقها.